صور من رثاء
بنات عبد المطلب بن هاشم
لأبيهن في حياته

دراسة وتحليل

إعداد

د./ وفاء مصطفى أبو السعود

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

تقديم:

إن للبلاغة فى العصر الجاهلى مكانتها العظيمة وللشعر فى ذلك العصر منزلة أسمى من البيان ويعد الرثاء من أغنى الموضوعات الشعرية، وأكثرها انتشاراً، وألصقها بالنفس البشرية، على الإطلاق، إذ هو فن البكاء على الميت، فى أبسط تعريفاته، والتفجع على فقده، وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته، وتعداد خلاله الكريمة، والإشادة بمناقبه وشمائله، ومن منا لم يفجع بعزيز فيتخطف الموت منه قريباً أو صديقاً، ومن ذا الذى لم يتأثر لفقد علمٍ كبيرٍ وعالم نحرير؟!. وفى الواقع فإنه لم يُقل شىء قط كما قيل فى باب الرثاء؛ لأن الناس، كما قيل، لا ينفكون من المصائب، ومن لم يعدم نفيساً كان هو المعدوم دون النفيس، وحق الإنسان الصبر على النوائب إذا كانت الدنيا دار فراق وبوار لا اجتماع وبقاء.. .. وعلى فراق المألوف حرقة لا تدفع ولوعة لا ترد، وإنما يتفاضل الناس بصحة الفكر، وحسن العزاء، والرغبة فى الآخرة، وجميل الذكر.

وقد عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلى، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، ويقفون على قبورهم مؤبِّنين لهم مثنين على خصالهم، وقد يخلطون ذلك بالتفكير فى مأساة الحياة من بعدهم، وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأن ذلك المصير المحتوم الذى لا مفر منه.

ولما كان الرثاء من نتاج العاطفة الشديدة والانفعال العميق، فقد حفل به ديوان شعرنا العربى، وانطلق فيه خيال الشعراء ضخماً مهولاً، وبرزت فيه الحقائق التاريخية متسربلة بلباس العاطفة الجياشة، فاشتدت فيه الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف، وتدفقت هدارة تنفس عن انفجارات النفوس، وحزن القلوب لكونها ترافق ضياع العزيز وفقد الحبيب.

ولم يقتصر النظم فى فن الرثاء على رجل أو امرأة فالمرأة تكاد تسابق الرجل وتسبقه فى قرض الشعر خصوصاً فيما يتصل بموضوع الرثاء ذلك

الموضوع الذى هو ألصق بالمرأة من الرجل بل يكاد يكون فن البكاء والعويل علماً عليها أو هى من علاماته، لرقة قلوبهن وغزارة دموعهن.

والبكاء فى شعر النساء ظاهرة معروفة، فالمرأة تغلبها عواطفها، وتتراكم على صدرها المشاعر الفوارة، فلا تستطيع أن تهذبها وتنسقها، بل تطلقها على الطبيعة بما فيها من حماس وإقذاع وسباب، وتلك سنة الله فى خلقه.

وطبيعى أن يتفوق النساء على الرجال فى ندب الموتى والنواح عليهم، لأن المرأة أدق حساً وأرق شعوراً وأيضا فإن حياة الرجال فى العصر الجاهلى كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة، وكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء، بل لقد ذهبوا يظهرون التجلد والصبر على من يموت منهم.

ولذلك فليس من الغريب إذا كنا نقرأ فى صفحات الكتب عن شاعرات فى العصر الجاهلى برزن فى عالم الشعر، وتقدمن فيه، ونبغن فى فن الرثاء، فالخنساء مثلاً صالت وجالت فى الرثاء ولم تدع صفة من الصفات إلا ورثت بها أهلها وأخويها صخراً ومعاوية، فجاء شعرها ناطقا بأحاسيسها معبرا عن مشاعرها مصورا لآلامها وأحزانها.

ولم تنفرد الخنساء بالنظم فى فن الرثاء فى تلك الفترة بل وجد من مثيلاتها من أتت بأجود المعانى، وأدقها فى الرثاء، فهيجت المشاعر، وأسالت الدموع، ورثت بكل الصفات.

فالرثاء هو المجال الفسيح الذى انطلقت فيه عواطف المرأة، لأنه نوع من النواح والبكاء، وقد ذكر الدكتور/ أحمد الحوفى بعضاً من السمات العامة التى يتسم بها شعرهن خاصة الرثاء فقال: "البراعة فى قليل من تلك الموضوعات، وفى مقدمتها الرثاء، لأنه مجال فسيح للنواح والبكاء تنطلق فيه عواطفهن، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا ما قسا عليها الدهر، وإنها لتوالى بكاءها وتستطيله،

وتلتذ حزنها وتستديمه، وفاء وحسرة أو ضعفاً ورقة، فإن كانت شاعرة نفست عن نفسها بأبيات تسكب فيها لوعتها وحرقتها"(١).

وبعد أن يذكر أسماء لشاعرات من العصر الجاهلى والحديث يقول: "ولكنهن فى مراثيهن حريصات على تصوير ما أصابهن من ضعف وذلة بعد فقد من فقدن، وهذا صدق شعورى وصدق واقعى لأنهن يعلمن أن الرجال هم حماتهن وهم ملاذهن.. .. وليس لهذه الظاهرة إثارة فى رثاء الرجال، وإن عظم حزنهم"(٢).

وها هن عمات الرسول -ﷺ- وقد كن ست نسوة: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة، وأروى"(٣). بنات عبد المطلب بن هاشم جد الرسول -ﷺ- شاعرات مجودات غير أن الوارد المأثور من شعرهن قليل فهو عبارة عن مقطوعات أو قصائد قصيرة لكنه مع قلته شاهد على إجادتهن فى فن الرثاء، وبراعتهن فى نظم الشعر، كما يؤكد أن لهن شعرا كثيرا فما وصلنا منه قليل ذهب أكثره أدراج الرياح مع مرور الزمن، وتعاقب الحدثان، أو أن أغلبه ضاع مع ما ضاع من شعر وما بقى خير ناطق بعبقريتهن، وشاهد بشاعريتهن.

ويكفى فى هذا البحث أن نتعرف على عبد المطلب بن هاشم وأشهر خصاله وصفاته فى إيجاز شديد، كما نتعرف على بناته وما يتصفن به من شاعرية، وما ورد لهن من شعر فى رثاء أبيهن قبيل موته ورحيله محققا موثقا.. .. وقد حرصت على الإتيان بهذا الشعر متكاملا فى قصائده ليكون بالإمكان دراسته وتحليله تحليلا فنيا فى أصالته وصدقه وتجاربه الشعرية ومعانيه وأفكاره وألفاظه وأساليبه وأخيلته وصوره

---

(١) أضواء على الأدب الحديث، أحمد محمد الحوفى – طبعة دار المعارف بالقاهرة ص٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه ص٢٦٣.

(٣) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية، لابن هشام، للفقيه المحدث أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى السهيلى، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف ج١ ص١٩٥.

وموسيقاه.. .. وما ورد لهن من شعر فى هذا الغرض يمكن أن نحصيه فى مقطوعة وخمس قصائد وقد تم توثيقه وتحقيقه.

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه تعالى

إنه الموفق ومنه العون والسداد

عبد المطلب بن هاشم

"واسم عبد المطلب: شيبة بن هاشم، واسم هاشم: عمرو بن عبد مناف، واسم عبد مناف: المغيرة قصى.. .. بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة؛ واسم مدركة: عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"(١).

تروى لنا كتب السيرة والتاريخ أن ابن عبد مناف قدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح ابن جحجبى بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، فولدت له عمرو ابن أحيحة، وكانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلا فارقته.

ولدت سلمى بنت عمرو لهاشم عبد المطلب فسمته شيبه، فتركه هاشم عندها حتى كان وصيفاً(٢)، أو فوق ذلك، ثم خرج إليه عمه المطلب؛ ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه فقالت له سلمى: لست بمرسلته معك، فقال لها المطلب: إنى غير منصرف حتى أخرج به معى، إن ابن أخى قد بلغ، وهو غريب فى غير قومه، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا؛ نلى كثيراً من أمرهم، وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة فى غيرهم.

وقال شيبه لعمه المطلب: لست بمفارقها إلا أن تأذن لى، فأذنت له، ودفعته إليه، فاحتمله، فدخل به مكة مردفه معه على بعيره، فقالت قريشى: عبد المطلب ابتاعه؛ فلهذا سمى شيبه: عبد المطلب، فقال المطلب: ويحكم: إنما هو ابن أخى

(١) السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى – دار المعرفة – بيروت ج١ص١، ٢، ٣.

(٢) يقال: (وَصُفَ) الغلامُ أ الفتاة – (يَوْصُفُ) وَصَافَةً: بلغ سنّ الخدمة، و(الوصيف): الخادم، انظر المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص٦٧١.

هاشم، قدمت به من المدينة[1]. ويروى أنه بعد عام الفيل بثمانى سنين توفى عبد المطلب بن هاشم ودفن بالحجون[2].

عبد المطلب يطلب من بناته أن يرثينه

ويروى أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته، وكن ست نسوة: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة، وأروى، فقال لهن: ابكين علىَّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت"[3]، ومن هذا يتضح لنا الفرق بين هذا الرثاء، ورثاء الخنساء وغيرها من شاعرات وشعراء الجاهلية، فالمعهود أن الرثاء يكون ببكاء الميت، وذكر خلاله، وتعداد مناقبه ومآثره، فالرثاء كما قال الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى: "بكاء الميت، والتفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته وعد خلاله الكريمة التى يروع الأعداء فقدها، والإشادة بمناقبه وشمائله"[4].

(١) الروض الأنف، تعليق طه عبد الرءوف سعد ج١ ص١٦٠، ١٦١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى ج١ ص١٦٩، وكذا البداية والنهاية للحافظ بن كثير – الطبعة الثانية ١٩٧٧، مكتبة المعارف – بيروت ج٢ ص٢٨٢، وكذا الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلى، عبد السلام على – الطبعة السادسة تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٨٤م، دار العلم للملايين المجلد الرابع ص١٥٤.

(٣) الروض الأنف تعليق طه عبد الرءوف سعد ج١ ص١٩٥ وكذا السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا وآخرون ج١ ص١٦٩، وكذا شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبورى – الطبعة الثانية ١٤٠١هـ –١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة – بيروت ص١١٠، وكذا جواهر السيرة النبوية الشيخ قرنى طلبة البدوى – الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ –١٩٧١م، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ص١٦.

(٤) الشعر الجاهلى محمد عبد المنعم خفاجى دار الكتاب اللبنانى مكتبة المدرسة - بيروت -لبنان ١٩٨٦م ص٢٤٧، وكذا مختصر السيرة النبوية لابن هشام إعداد محمد عفيف الزغبى دار المطبوعات الحديثة الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م ص١٩.

وذلك المعهود بعد وفاته، ولم يعهد أن رثى الشعراء أحدا فى حياته بخلاف رثاء بنات عبد المطلب، فقد كان فى حياته!!!

وقد طلب منهن ذلك وسمع رثاءه بأذنيه وقد سعد بسماعه قبل أن يموت وتلك تكاد تكون ظاهرة جديدة فى عالم الرثاء، فمن من الناس يرغب فى رثائه وبكائه فى حياته؟! فقد يكون ذلك مصدر شؤم على المريض، بل هو مطلب صعب على نفس قائلة إذا كان الطالب عزيزا كالأب وغيره، وعبد المطلب بن هاشم من أصحاب المكانات العالية، والهمم الرفيعة والزعامات المعروفة، فله فى نفس بناته إعزاز، وفى نفوس أهله وقبيلته إخلاص، فهو من قيادات مكة، وأعلاها نسبا وأرقها شأنا، وأعظمها ذكرا.

ومن العجب أن بناته يتبارين فى رثائه، وبكائه فى حياته، ويبادرن فى إسماعه رثاءه بأذنيه، فيبكين فيه كل صفات الشهامة والرجولة، والكرم، ولا أدرى أكان ذلك لأنه من المكانة بحيث لا تستطيع واحدة منهن أن ترد له طلباً فأوامره مطاعة، وطلباته مجابة؟، أم لأن الشعر ملك عليهن المشاعر والأحاسيس بحيث تعجز كل منهن أن تخفيه أو تحول دون نظمه؟ وفى رأيى أن كلا الأمرين محتمل وممكن !!

صفية بنت عبد المطلب بن هاشم

ومن هؤلاء الشاعرات صفية بنت عبد المطلب، وقد اشتهرت بالرثاء والبكاء فقد قال فيها كعب بن مالك من قصيدة رثى بها حمزة بن عبد المطلب:

صفـــيّة قـــومى ولا تعجـــــزى ∴ ويكـــى النســـاء على حمـــزة[1]

وقد كان لعبد المطلب بن هاشم "عشرة نفر وست نسوة: العباس، وحمزة، وعبد الله، وأبا طالب - واسمه عبد مناف - والزبير، والحارث، وحجلا، والمقوم، وضرارا، وأبا لهب - واسمه عبد العزى - وصفية، وأم حكيم البيضاء، وعاتكـــة،

(١) رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" الطبعة الثامنة دار المعارف ص٢٥٣.

وأميمة، وأروى، وبرة"[1].

لقد كانت الفصاحة سليقة وطبعاً عند العرب، وكان الشعر سجلَّ أحداثهم ووقائعهم وأيامهم، بل تاريخهم الكامل الناجز بعبارة أدق وخاصة إذا ما كان أحدهم قد لقى فى صغره عناية ورعاية وتوجيهاً نحو القراءة والكتابة، ولم يكن ذلك إلا عند أشرافهم وعِلْية القوم منهم.

فلا عجب أن يكثر فى بنى هاشم وعبد المطلب الشعراء والأدباء والفصحاء وأصحاب الحكمة والبلغاء.

ولقد كانت "صفية" واحدة من آل عبد المطلب الذين أوتوا فصاحة القول وطبع الشعر، فجرى لسانها عند كل نازلة أو واقعة تسجلها وتؤرخ لها مفصلة مبينة.

كانت شاعرة فصيحة متقدمة عند جميع العرب بالقول والفعل والشرف والحسب والنسب.

وهى: صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، قرشية هاشمية.

وأمها "هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلام بن مُرَّة بن كعب ابن لؤى وولدها – من عبد المطلب غير صفية حمزة والمقوم"[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى ج١ ص١٠٨، وكذا نسب قريش لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى عنى بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه ليفى بروفنسال الطبعة الثانية – دار المعارف – بمصر ص١٧.

(٢) المعارف لأبى محمد عبد الله بن مسلم حققه وقدم له ثروت عكاشة – الطبعة الرابعة دار المعارف ص١١٩، وكذا السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى ج١ ص١٠٩، وكذا صور من سير الصحابيات عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى – الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، دار بن خزيمة – الرياض ص٢٧٣، وكذا الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، زينب بنت يوسف فواز العاملى – الطبعة الثانية – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ص٢٦١، وكذا صور من حياة الصحابيات عبد الرحمن رأفت الباشا – الطبعة الأولى ١٤١٧هـ –١٩٩٦، دار الأدب الإسلامى –ليماسول – قبرص ص٢٢، ٢٣.

نشأت صفية فى بيت عبد المطلب سيد قريش وزعيمها بلا منازع، وقائدها ورائدها، وصاحب السؤدد والمجد والشرف، حكيم مكة، ورأس الأمر فيها، كما اجتمعت له بالإضافة إلى كل تلك الأمجاد سقاية الحاج.

ولقد تأثرت صفية بكل تلك العوامل، ومن خلالها تكونت شخصيتها القوية النافذة، فكانت فصيحة بليغة، قارئة عالمة، شجاعة، فارسة، تمتطى صهوة الخيل كأبرع الفرسان وتقاتل بالسيف والرمح كأمهر الشجعان.

وكانت صفية زوجاً للحارث بن حرب بن أمية - وهو أخو سفيان بن حرب فتوفى عنها، ولم تعقب منه، فتزوجها العوام بن خويلد بن أسد، أخو سيدة النساء خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فولدت له: حوارى النبى -ﷺ- الزبير بن العوام، والسائب، وعبد الكعبة، وكان السائب شهد أحدا والخندق، وقيل اليمامة[1].

وحين أشرقت مكة بنور الإسلام، وشرفت بدعوة سيد المرسلين ابن أخيها الأمين محمد بن عبد الله -ﷺ-، كانت صفية - رضى الله عنها - من أوائل الذين آمنوا به وصدقوا برسالته واتبعوا النور الذى أنزل معه.

وكان قد سبقها إلى ذلك ابنها الزبير بن العوام -رضي الله عنه-.

وقد هاجرت صفيه - رضى الله عنها - إلى المدينة مع ابنها الزبير، وأقامت هناك تعيش أهم أدوار وفصول تاريخ الإسلام وقد شاركت فى صنعه فى بعض

(١) مسلمات خالدات محمد عمر الداعوق، محمد على القطب - الطبعة الأولى منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - لبنان ج٢ ص٩، وكذا سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه، شعيب الأرنؤوط - الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م، مؤسسة الرسالة - بيروت ج٢ ص٢٦٩، وكذا الإصابة فى تمييز الصحابة شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد على العسقلانى، المعروف بابن حجر ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م، دار الفكر - بيروت ص١٧٠، وكذا أسد الغابة فى معرفة الصحابة، عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، المعروف بابن الأثير - الناشر المكتبة الإسلامية ص٤٩٢.

الأحيان[1].

وكانت صفية تحب الرسول -ﷺ- منذ صغره، وتحن عليه وأعجبت به شاباً، وصدقته نبياً، وساندته غازياً، وحزنت لوفاته -ﷺ- فرثته بشعرها المتميز وعاشت صفية – رضى الله عنها – بعد رسول الله -ﷺ- معززة مكرمة يعرف الجميع قدرها ومكانتها، حتى توفيت فى خلافة عمر بن الخطاب -ﷺ- سنة عشرين، وقد بلغت من العمر نيفاً وسبعين سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب ودفنت فى البقيع بفناء دار المغيرة بن شعبة عند الوضوء[2].

(١) نساء ومواقف، فايز موسى أبو شيخة الحلقة الأولى– الطبعة الأولى١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، مكتبة الفلاح– الكويت ص٥٩، وكذا العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للإمام تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى الفاسى المكى، تحقيق محمود محمد الطناحى، مطبعة السنة المحمدية– القاهرة ١٣٨٨ هـ–١٩٦٩م ج٨ ص٢٥٨.

(٢) شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر – الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ–١٩٦٧، منشورات المكتب الإسلامى ص٢٠١، وكذا الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلى الدهان، عبد السلام الجزء الثالث ص٢٠٦، وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب دار الفكر مؤسسة مصرية للطباعة والنشر ج٨ ص٢٨، وكذا نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين، محمود مهدى الإستانبولى – مصطفى أبو النصر الشلبى – الطبعة الثانية ١٤١٠هـ–١٩٩٠م، مكتبة السوادى للتوزيع – جدة ص١٩٦.

رثاء صفية بنت عبد المطلب لأبيها:

قالت صفية تبكى أباها وترثيه:

أرقت لصوت نائحة بليل ∴ على رجل بقارعة الصعيد
ففاضت عند ذلكم دموعى ∴ على خدى كمنحدر الفريد[1].
على رجل كريم غير وغل ∴ له الفضل المبين على العبيد[2].
على الفياض شيبة ذى المعالى ∴ أبيك الخير وارث كل جود[3].
صدوق فى المواطن غير نكس ∴ ولا شخت ولا سنيد[4].
طويل الباع أروع شيظمى ∴ مطاع فى عشيرته حميد[5].
رفيع البيت أبلج ذى فضول ∴ وغيث الناس فى الزمن الحرود[6].
كريم الجد ليس بذى وصوم يـــروق على المُسَـــوَّد والمَسُـــود[7].

---

(١) ففاضت عند ذلكم دموعى: وردت بذلك النص فى أكثر الأصول.
كمنحدر: يروى كمنحدر بكسر الدال، أى: كالدر المنحدر، ومنحدر بفتح الدال فيكون التشبيه راجعاً للفيض، فعلى رواية الكسر شبهت الدموع بالدر الفريد، وعلى رواية الفتح شبهت الفيض بالانحدار، الفريد: الدر.

(٢) الوغل: الضعيف النذل الساقط المقصر فى الأشياء.

(٣) أبيك الخير: أرادت الخير بالتشديد فخففت كما يقال هين وهيّن، وفى القرآن الكريم ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾، وكان اسم أم الحسن البصرى خيرة، فهذا من المخفف، ويجوز أن يكون الخير ها هنا ضد الشر، جعلته كله خيراً على المبالغة، كما تقول: ما زيد إلا علم أو حسن، وما أنت إلا سير، وهو مجاز حسن، فعلى هذا الوجه لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث فيقال: خيرة.

(٤) النكسُ: الرجل الضعيف الذى لا خير فيه، وقولها: "ولا شخت المقام ولا سنيد" الشخت ضد الضخم، والشخت بالفتح والتحريك: الدقيق الضامر من الأصل لا هزالا.
السنيد: الضعيف الذى لا يستقل بنفسه حتى يسند رأيه إلى غيره

(٥) الشيظمى: الفتى الجسيم.

(٦) الحرود: الناقة القليلة الدر شبه الزمن فى جدبه بها.

(٧) وصوم: جمع وصم، وهو: العار. انظر موسوعة الشعر العربى اختارها وشرحها وقدم لها مطاع صفدى، وإيليا حاوى، أشرف عليها الدكتور/ خليل حاوى، التحقيق والتصحيح نصاً ولغةً وروايةً، أحمد قدامة الشعر المخضر شركة خياط – للكتب والنشر - بيروت لبنان ١٩٧٤م، المجلد الخامس ص٢٩٢، ٢٩٣.

عظيم الحلم من نفر كرام ∴ خضارمة ملاوثة أسود[1].
فلو خلد امرؤ لقديم مجد ∴ ولكن لا سبيل إلى الخلود
لكـــان مخلـــدا أخـــرى الليالى ∴ لفضـــل المجـــد والحسب التليد[2].

فهذه القصيدة التى قالتها صفية تبكى أباها عبد المطلب بن هاشم من شعر الراثى الحزين الباكى الصادر عن قلب مكلوم مفعم بالحزن والأسى، وها هى نراها فى قصيدتها تصور هول الموقف وشدة الخطب ومرارة الفقد، فقد رأت أباها طريح الفراش، وبدت عليه علامات الموت، وقد طلب منها كما طلب من أخواتها بكاءه ورثائه فى حياته، وكأنه أراد بذلك أن يختبر مدى حبهن له فعبرت كل واحدة منهن بما جادت به قريحتها تجاه الأب السيد الرءوم القوم فى قومه.

ومن الملاحظ أن القصيدة من الشعر الرصين المتميز فى ألفاظه، ومعانيه، فقد استطاعت صفية أن تضمن قصيدتها كل المعانى التى كانت شائعة وسائدة فى الجاهلية.

والرثاء كما هو وارد فى مفهومه: "بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته وعد خلاله الكريمة التى يروع الأعداء فقدها، والإشادة بمناقبه

(١) خضارمة: جمع خضرم "كزبرج" وهو الجواد المعطاء والسيد الحمول، والملاوثة: جمع ملواث من اللوثة وهى القوة كما قال المكعبر: عند الحفيظة إن ذو لوثة لاثا.
وقد قيل: إن اسم الليث منه أخذ، إلا أن واوه انقلبت ياء، لأنه فيعل، مخفف كما تقدم: فى هين وهين، ولين ولين.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، حققها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى ج١ ص١٦٩، ١٧٠، وكذا الروض الأنف تعليق طه عبد الرءوف سعد ج١ ص١٩٥، ١٩٦، وكذا شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبورى ص١١٠، وكذا قول على قول حسن سعيد الكومى - الطبعة السابعة ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م، دار لبنان للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ج٢ ص٣١٩.

وشمائله، وكانوا فى الرثاء على شرطهم فى غيره لا يبالغون ولا يهولون، فيتصورون الأرض تميد، والسماء ترمى بالشهب.

وإنما كانوا يبكون فى الميت الشجاعة والنجدة والكرم والوفاء ونحو ذلك، مما كانوا يتمدحون به"(١).

وكان من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة فى قلل الجبال والأسود الخادرة فى الفياض وبحمر الوحش المتصرخة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها وذلك فى أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر"(٢).

وصفية بنت عبد المطلب أشادت بمناقب أبيها وعدت خصاله، وضربت به المثل الأعلى فى الشهامة، والشجاعة والكرم.

فلم تلبث أن سمعت صوت نائحة فى جوف الليل الساكن تنوح لفقد رجل عزيز لديها بقارعة الصعيد أى: "بقارعة الطريق"(٣)، حتى تألمت فتأرقت وأصابها الحزن والسهد، وقد هيج صوت النائحة همومها وأحزانها وحرك فيها ساكنها فلم تملك دموع عينيها فانحدرت بغزارة وخيل لها أن المفقود هو سيد قومه عبد المطلب بن هاشم فانسكبت دموعها تتحدر على خدها بغزارة وتدفق كما ينحدر الدر الفريد عند فرط العقد، وهى صورة فنية رائعة توضح شدة حزنها، واستمرار بكائها لفقد أبيها أتت بها وصورتها من واقعها المرئى المشاهد استقت مادتها من الطبيعة التى تعيشها فكما قلنا إن "منحدر" بكسر الدال أى كالدر المنحدر فى تشبه بالدر الفريد، وتروى "كمنحدر" بفتح الدال وهنا تشبه الفيض بالانحدار فدموعها كالفيض الغزير

(١) الشعر الجاهلى، محمد عبد المنعم خفاجى ص٢٤٧.

(٢) العمدة فى صناعة الشعر وآدابه ونقده، لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى، تحقيق وشرح مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ج٢ ص٣٦١.

(٣) لسان العرب، لابن منظور – دار المعارف ص٤٤٧.

ينحدر على خدها، وحين تشبه دمعها بالدر المتساقط تبدو الصورة لامعة براقة، إلا أن موقف البكاء والحزن يلبسها ثوب السواد والقتامة فيختفى هذا البريق واللمعان والجمال والبهاء وراء هذا الستار من البكاء والحزن.

ثم تسترسل صفية فى البكاء فتسرد من خلال أبياتها أهم الصفات التى يتصف بها فقيدها عبد المطلب بن هاشم، فتبكى فيه الكرم الذى ينقطع بموته، والقــوة خارت بمرضه، فهو قوى غير ضعيف ولا مقصر فى الأشياء، كما أنه صاحب فضل لا يخفى على أحد، فهو كثير العتق للعبيد فى الوقت الذى كان العبيد فيه يمثلون ثروة كبيرة طائلة، وتجارة رابحة تدر الخير على غيره، ولكنه كان زاهــداً فى تلك التجارة فياضاً بالعطاء وهى صيغة مبالغة تبين وتوضح دوام واستمرار عطائه، وكثرة نواله، وهو شيبة الحمد اسمه الذى اشتهر به بين قومه، رفيع المنزلة، خير من ورث الجود كله فقد جعلته كله خيراً على المبالغة، وأرى أنها قصدت بقولها "شيبة ذى المعالى" أن تذكره باسمه الذى أطلق عليه وهو شيبة الحمــد وقد ذكر صاحب لسانَ العرب أن "شيبة: اسم رجل مفتاح الكعبة فى ولده.. .. "[1].

وقد أطلق على عبد المطلب بن هاشم لما له من مكانة ومنزلة رفيعة بين قومه، وقيامه بالسقاية على البيت الحرام.

ومن أعظم الصفات التى رثت بها صفية والدها أنه صدوق فى كــل المواطن وهى صيغة مبالغة لتبين وتوضح دوام صدقه، وأن هذه الصفة لاصقة به واشتهر بها فلم يجرب عليه كذب على الإطلاق، ومع ذلك فهو قوى غير نكس.

ثم نراها ترسم لنا صورة واضحة تبرز فيها أهم ملامحه الجسدية قوامها الألفاظ والمعانى وهى صورة حقيقية حتى ليخيل للقارئ أن شخصية عبد المطلب بن هاشم ماثلة أمامه وتظهر هذه الصورة بوضوح من قولها:

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج٤ ص٢٣٧٢.

"ولا شخت المقام ولا سنيد" فهو معتدل القوام، رشيق دقيق المخاصر، ضامر من الأصل لا هزالا ولا إعياء، ومن هنا فجسمه قد ملئ نشاطا وحيوية.

وما أروع الصورة الخيالية التى أوردتها فى هذا البيت بطريق الكناية فى قولها "ولا سنيد" لتبين وتوضح خبرته وحنكته وكثرة تجاربه فى الحياة، كما تجسم ثقته فى نفسه فهو يأخذ رأيه وقراره بنفسه ليس فى حاجة لمن يدبر له أموره.

ومن المعانى التى رثته وبكته بها -أيضا- أنه طويل الباع وهو كناية عن نشاطه ورفعت منزلته فقد اشتهر بين قومه بالنجابة، كما اشتهر بالروعة والوسامة ومع هذه الصفات كلها فهو مطاع فى عشيرته محمود فى قومه صاحب الكلمة المسموعة والرأى المطاع.

ولكننا فى هذا البيت نرى صفية وقد غلب عليها الحزن حتى لتكاد تخلط فى وصف عبد المطلب فقد وصفته كما رأينا فى البيت السابق بقولها "ولا شخت" أى الدقيق الضامر ضد الضخم، ولكننا نراها فى هذا البيت تعود فتصفه بقولها: "شيظمى" أى: الفتى الجسيم الضخم فقد أتت له بصفتين متناقضتين وهذا مما يؤخذ عليها، ولكننى أرى أن الموقف قد أنساها ذلك وحزنها على أبيها أبعدها عن الصواب، وانحرف بها برهة عن الجادة.

ثم تعود فتسترسل فى البكاء فمن المعانى التى بكته بها -أيضا- المنزلة والحسب، وعراقة الأصل، والكرم فى أوقات الجدب والمحل فنراها ترسم لنا صورة خيالية رائعة تجسم من جلالها كرمه وذلك يظهر بصورة واضحة فى قولها "وغيث الناس فى الزمن الحرود" فتصور كرمه وضيافته الناس وإطعامهم فى أوقات الجدب وقد أصابهم الجوع الشديد فلم يجدوا ما يطعمون فتشبه الزمن فى جدبه بالناقة الحرود القليلة الدر.

ومن الملاحظ فى هذا البيت أن صفية قد أتت بصورة عربية أصيلة انتزعت مادتها من البيئة العربية التى تعيشها ومن الواقع الملموس الذى تشاهده ثم نجدها

تنعى فيه كرم النسب فهو قد تناسل من جد طيب أصله يبعد وينأى به عن العار والخسة، ثم وصفته فى حلمه بأنه عظيم ورث وأنه من نفر كرام اشتهروا بالجود والعطاء، أسود فى قومهم وشجاعتهم.

وفى ختام هذه القصيدة نراها تقرر حقيقة واقعة مسلما بها وهى أنه لا خلود ولا بقاء لأى إنسان على وجه الأرض ولا سبيل إلى الخلود فلو كان ثمة من خلود لبشر لكان والدها عبد المطلب أحق الناس بهذا الخلود وأحراهم به، وذلك لفضله ومجده الخالد، وحسبه العظيم التليد، ويبدو أن عبد المطلب كان يروقه مثل هذا الرثاء ويرغب فى سماعه(١).

ومن الملاحظ أن المعانى التى رثت بها صفية أباها عبد المطلب ابن هاشم لم تخرج عن المعانى التقليدية التى رثى بها الشعراء الجاهليون، والتى كانت سائدة فى العصر الجاهلى، وهى معانى واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق فى الخيال.

وهذه القصيدة هى كل ما روى من شعر لصفية فى الجاهلية وهو شعر يناسب طبيعة المرأة فى البكاء على الميت، وتدور معانيها حول الشجاعة والجود والكرم، والبذل والعطاء، والقوة والبأس، وكرم الأصل وشرف النسب، وعلو المنزلة، ورفعة المكانة، وكلها من الصفات العربية الأصيلة التى اشتهر بها عبد المطلب بن هاشم وعرف بها بين قومه.

برة بنت عبد المطلب بن هاشم

ومن هؤلاء الشاعرات -أيضاً- برة بنت عبد المطلب وأمها:

"فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

---

(١) الرثاء فى الشعر العربى أو جرحات القلوب، محمود حسن أبو ناجى – الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ منشورات درا مكتبة الحياة – بيروت – لبنان ص٢٧، وكذا السيرة النبوية لابن هشام، حققها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى ج١ ص١٠٩.

فقد كانت برة بنت عبد المطلب عند عبد الأسد بن هلال بن عبد الله المخزومى، فولدت له: أبا سلمة بن عبد الأسد، الذى كانت أم سلمة عنده قبل أن تكون عند النبى -ﷺ-، ثم خلف عليها أبو رهم بن عبد العزى، من بنى عامر بن لؤى فولدت له أبا سبرة بن أبى رهم(١).

أعينى جودا بدمع درر ∴ على طيب الخيم والمعتصر(٢).
على ماجد الجد وارى الزناد ∴ جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذى المكرمات ∴ وذى المجد والعز والمفتخر
وذى العلم والفضل فى النائبات ∴ كثير المكارم جم الفجر(٣).
له فضل مجد على قومه ∴ منير يلوح كضوء القمر
أتته المنايا فلم تشوه ∴ بصرف الليالى وريب القدر(٤).

إذا كانت صفية فيما مضى قد رثت أباها عبد المطلب بكل صفات الكرم والجود والشجاعة فإن برة أختها قد رثته بنفس هذه الصفات أيضاً، ولم تخرج عن معانى الرثاء التى كانت سائدة عند شعراء الجاهلية.

---

(١) المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١٢٨، وكذا نسب قريش لأبى عبد الله المصعب بن المصعب الزبيرى عنى بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه ليفى بروفنسال ص١٧.

(٢) درر: وهى كثرة اللبن وسيلانه، وهو كناية عن طلب الدمع الغزير، الخيم: (بالكسر): السجية والطبيعة، ومعنى كونه طيب المعتصر: أى أنه جواد كريم عند المسألة.

(٣) الفجر: العطاء والكرم والجود والمعروف والمال وكثرته.

(٤) لم تشوه: لم تصب الشوى بل أصابت المقتل، والشوى الأطراف والشوى: ما لا تقتل الإصابة كاليدين والرجلين، القدر: كناية عن هموم الدنيا ومتاعبها. انظر: معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام إعداد عبداً مهنا – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص٣٠، وكذا شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر – الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ -١٩٦٧م، منشورات المكتب الإسلامى ص٣١، وكذا السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا وآخرون ج١ ص١٧٠، ١٧١.

ومن الواضح أن الوارد من شعر برة فى رثاء أبيها لا يصل فى كثرته إلى حد القصيدة بل نراه عبارة عن مقطوعة مكونة من ست أبيات فقط لكنها مع قلتها تحمل فى طياتها المعانى الكثيرة، وتشهد لصاحبتها بالبراعة فى التعبير، والصدق فى الأداء، فضلا عما نلمسه فيها من صدق المشاعر والأحاسيس الباكية الشاكية، فقد بدأت مقطوعاتها ببداية تقليدية فنراها تطلب من عينيها أن تجودا بالدمع غزيرا ولا تتوقف عن البكاء، وكما نعلم أن الرثاء عند المرأة فى العصر الجاهلى قد اقترن دائما بالبكاء وسؤال العين سكب الدمع غزيرا، وذلك كما رأينا فى رثاء صفية بنت عبد المطلب، وكما جاء فى رثاء الخنساء لأخيها صخر وغيره فى أكثر من موطن كما قالت:

يا عين جودى بدمع منك مسكوب ∴ كلؤلؤ جال فى الأسماط مثقوب[1].

وتسترسل برة بنت عبد المطلب فى سرد أهم الصفات التى اتصف بها أبوها. فتنعى فيه كل معانى الخير فتصفه بأنه رجل على طبيعته وفطرته وسجيته التى خلقه الله عليها، لا يتكلف على الإطلاق. ومن ثم فهو ماجد الجد، عريق الأصل، طيب الذكر، كريم لا يشق له غبار فى الكرم، ثم نراها ترسم لنا صورة واضحة ودقيقة لصفة الكرم عنده بطريق التصوير البيانى ويظهر ذلك بوضوح فى قولها: "وأرى الزناد" كناية تجسم جوده وكرمه، فهو ملاذ كل جائع ومقصد كل فقير ومعوز ومحتاج.

ومع ذلك فهو جميل فى محياه، مهيب الطلعة، حسن المظهر والشكل فى وقت السلم، أما فى وقت الحرب فهو عظيم الخطر شديد على أعدائه، ثم نراها تسميه باسمه "شيبة الحمد" وقد سبقتها أختها صفية فى ذلك.

---

(١) ديوان الخنساء المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان ص ٢٣.

ثم تسترسل برة فى وصف أبيها فتصفه بأنه صاحب المكرمات، وحامل لواء الشرف والعز والفخر بين القبائل، وتصفه بالحلم، والفصل فى المصائب والنائبات يهرع إليه القوم عندما تلم بهم ملمة فهو وحده القادر على الفصل بينهم.

ونراها فى البيت الرابع ترسم صورة فنية رائعة رسمتها بطريق الكناية فى قولها "جم الفجر" فهى تجسم عطاءه وتوضح معروفه وتجعله شاخصا مدركا والصورة – كما نلاحظ – انتزعتها برة من البيئة العربية الأصيلة فجاءت متآلفة مع الموقف والحقيقة ندرك فيها الصدق والواقعية فعبد المطلب كما تروى لنا كتب السيرة اشتهر بين قومه بالكرم والجود والعطاء وكثرة الإطعام فى وقت الجدب والمحل.

ثم نراها فى البيت الخامس ترسم صورة فنية أخرى أوردتها بطريق التشبيه فى قولها "له فضل.. .. منير يلوح كضوء القمر" فعبد المطلب له فضله على قومه وهذا الفضل واضح وظاهر للناظرين ولا يخفى على أحد ولن يستطيع أى إنسان إنكاره فيشبه فى وضوحه نور القمر.

وهذه الصورة أيضا توضح كثرة نواله وتقدمه فى أهله فى البذل والجود.

ومع كل ذلك ومع ما اتسم به عبد المطلب من صفات عربية أصيلة قلما تتوفر لغيره فقد جاءته المنايا فلم تمهله، ولن تمنع وتحول كل هذه الصفات دون موته فقد عاجله القدر.

وفى البيت السادس ترسم لنا برة صورة بيانية رائعة فى قوله: "أتته المنايا" فقد رسمتها بأسلوب الاستعارة تشخص المنايا، وتوضح أنها قد أتته شاخصة فداهمته وأصابت مقتله، ولا أملْ فى الشفاء والبرء فقد وضحت عليه علامات وأمارات الموت.

والمتأمل فى قولها "أتته المنايا تشوه" يدرك قيمة التعبير، وشدة ما يعانيه عبد المطلب من المرض وهو راقد فى فراش الموت، وقولها "المنايا" بصيغة الجمع يوحى بالرهبة والفزع، فالموت لاحقه بكل أسبابه ووسائله وسد عليه كل منافذ الحياة

فلا خلاص ولا مفر، كما أن فى قولها "أتته" تشخص الموت وتجعله شاخصا يسعى فى رهبته وفزعه تقبض عبد المطلب بن هاشم.

عاتكة بنت عبد المطلب

ومن هؤلاء الشاعرات أيضاً عاتكة، وقد تزوجها فى الجاهلية أبو أمية بن المغيرة المخزومى، فولدت له عبد الله وزهيراً وقريبة[1]، أما أمها فهى "فاطمة بنت عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم"[2]، وهى من عمات الرسول -ﷺ- واختلف فى إسلامها، استدل بعضهم على إسلامها بشعر لها تمدح النبى وتصفه بالنبوة، والمذكور فى السيرة أنها كانت يوم وقعة بدر السنة الثانية للهجرة فى مكة مع قريش، وقال ابن سعد: أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة.

وهى شاعرة من شواعر العرب، لها فى ديوان الحماسة أبيات مختارة.

(١) شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر ص٢٣٧، وكذا معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام إعداد عبد أمهنا ص١٦٧، وكذا أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام عمر رضا كحالة مؤسسة الرسالة – الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ج٣ ص٢٠٧، وكذا نسب قريش لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى عن بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه ليفى بروفنسال ص١٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا وآخرون ج١ ص٢٩٨،وكذا ج١ ص١٠٩، وكذا المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١١٩.

رثاء عاتكة بنت عبد المطلب لأبيها

قالت عاتكة بنت عبد المطلب تبكى أباها وترثيه:

أعينى جودا ولا تبخلا ∴ بدمعكما بعد نوم النيام
أعينى واسحنفرا واسكبا ∴ وشوبا بكاءكما بالتدام(١).
أعينى واستخرطا واسجما ∴ على رجل غير نكس كهام(٢).
على الجحفل الغمر فى النائبات ∴ كريم المساعى وفى الذمام(٣).
على شيبة الحمد وارى الزناد ∴ وذى مصدق بعد ثبت المقام
وسيف لدى الحرب صمصامة ∴ ومردى المخاصم عند الخصام(٤).
وسهل الخليقة طلق اليدين ∴ وفى عد ملى صميم لهام(٥).
تبنك فى باذخ بيته ∴ رفيع الذؤابة صعب المرام(٦).

---

(١) اسحنفر المطر وغيره: كثر صبه. الالتدام: ضرب النساء وجوههن فى النياحة وكان يفعل ذلك فى الجاهلية، وقد أبطله الإسلام ونهى عنه.

(٢) استخرط الرجل فى البكاء: لج فيه واشتد، والنكس: الرجل الضعيف، ورجل كهام: بطئ عن النصرة والحرب.

(٣) الجحفل: الرجل العظيم والسيد الكريم.

(٤) مردى المخاصم: المردى: مفعل من الردى، وهو الحجر الذى يقتل من أصيب به، وفى المثل: "كل ضب عند مرادته".

(٥) وفئ: أى وفى، وخفف للضرورة، العدملى: كل مسن قديم، والضخم القديم من الشجر. واللهام: "كغراب": الكثير الخير من لهمت الشيء ألهمه، إذا ابتلعه، قال الراجز:

كالحوت لا يرويه شيء يلهمه ∴ يصبح عطشانا وفى البحر فمه

ومنه سمى الجيش لهاما.

(٦) تبنك: تأصل وتمكن، مأخوذ من البنك (بضم الباء) وهو أصل الشيء وخالصه، تريد أن بيته تأصل فى باذخ من الشرف شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر ص٢٣٨، وكذا أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، عمر رضا كحالة ج٣، ص٢٠٧، ٢٠٨، وكذا السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا وآخرون ج١ ص١٧١، وكذا الروض الأنف قدم له وعلق عليه طه عبد الرءوف سعد ج١ ص١٩٧.

ثم يأتى دور عاتكة بنت عبد المطلب فى البكاء والرثاء فتلبى طلب أبيها فى البكاء عليه فى حياته، فكما نعلم أنه قد طلب منهن جميعا ذلك فنراها ترثيه بهذه القصيدة التى تعبر فيها عن صدق مشاعرها، وحزنها فى صورة زفرات وأنات صادرة عن قلب مكلوم أفعم بالأسى والحزن على عبد المطلب ابن هاشم سيد قومه طريح الفراش أمامهن.

فالرثاء تعبير عن أحزان تختلج فى صدور الأحياء لفقد إنسان عزيز كان يعيش بينهم وكانت له مكانته فيهم، وهو أيضاً محاولة للمواساة من الفجيعة التى أصابت الناس بالموت.

"إن الرثاء أو جراحات القلوب أو بكاء الأحبة عاطفة من أصدق العواطف الإنسانية وأخلدها على مر الدهور، وكر العصور.

ولعل الرثاء أصدق فنون الشعر العربى قاطبة ذلك لأنه يخاطب عزيزاً فـــارق الحياة أو ملكاً كان ملء السمع والبصر أو داراً دارت عليها عوادى الزمن"(١).

ولقد ارتبط فن الرثاء بعقيدة المجتمع وتفكيره، ونظرته إلى مسألة الموت، ففى العهد الجاهلى الذى كان منه هؤلاء الشاعرات اللواتى نتحدث عنهن، كان الموت عندهن نهاية مأسوية حتمية تقتحم الناس فتسوقهم إلى حتفهم دون أن يكونوا قادرين على التخلص من جذبها وتحكمها، وهى نهاية تعنى لديهن الهلاك وعدم الانبعاث إذ لا يملكن أية ملامح للمصير الذى ينتظر موتاهم بعد أن يواروا التراب، فكان موت أحد الناس فجيعة عظيمة تستحق الحزن العميق والأسى الممض لأنه كان يحطم الطموحات وينهى الآمال.

---

(١) الرثاء فى الشعر العربى، محمود حسن أبو ناجى نشر مكتبة دار الحياة – بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ص١١.

لذلك ارتبط الرثاء بأسباب ذلك الموت، فإن كان قتلاً فى المعارك فرثاؤه تنديد بالقاتلين وتوعد للثأر منهم وتمجيد لبطولة المقتول وبلائه قبل أن يموت. وإن كان موتاً عادياً فبكاء على الحياة من بعده وعزاء بأن الموت كأس لابد أن يشربها الناس جميعاً، ولكن الأمر هنا يختلف، فقد كان الرثاء فى حياة الفقيد، وقد طلب هو ذلك من بناته، وهو مطلب صعب عليهن فهذا الأب له فى نفس بناته إعزاز ومن هنا جاءت مشاعر عاتكة صادقة، وحزنها عميقا، وقلبها مكلوماً على عبد المطلب بن هاشم فقد بدأت قصيدتها بداية تقليدية مثل من سبقتها من أخواتها وغيرهن من راثيات الجاهلية، فنراها تخاطب عينيها طالبة منهما البكاء فتجودا بالدمع ولا تبخلان بعد نوم النيام، وهناك ندرك قيمة تعبيرها الصادق فهى لا تنام كغيرها من المكلومات كما أن أسلوبها يوحى باستمرارية البكاء فهى دائمة الحزن ليل نهار.

ثم نراها فى البيت الثانى لا تكتفى بذرف الدمع غزيرا وسكبه هطالا فقط بل لابد وأن يصحب ذلك نوح ولطم للوجه وتقرض أشعارا بالأسى والحزن، وهى تسير فى هذا المنهج على عادة النساء الجاهليات وما كان يشيع عندهن من "إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود، وكن يصنعن على القبر وفى مجالس القبيلة والمواسم العظام"(١).

ثم نرى عاتكة فى البيت الثالث تطلب من عينيها الاستغراق فى البكاء واللج فيه ثم نراها تبدأ فى عرض أهم صفاته وأهم المعانى التى تبكيها فيه فهو رجل قوى غير ضعيف، ومن الملاحظ أن قولها "غير نكس" قد تردد فى قول أختها صفية: "صدوق فى المواطن غير نكس" ومن هنا يظهر لنا بوضوح أن تكرار مثل هذا الأسلوب فى رثاء بناته يؤكد قوته وعدم ضعفه.

أما قولها: "كهام" فهو يوحى بل يشعر بأن عبد المطلب لم يكن مسنا عند وفاته بل فيه من الشباب والفتوة والتماسك ما يجعله يستحق هذا الرثاء.

---

(١) تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى شوقى ضيف الطبعة الثامنة ص٢٠٧.

ونجدها فى البيت الرابع تنعى فيه أسمى معانى الخير فهو رجل عظيم وسيد كريم فى قومه مالك لزمام الأمور بحكمة وقوة.

ونراها فى البيت الخامس تسميه باسمه (شيبة الحمد) كما قد سبق فى رثاء صفية وبرة.

وهذا إن دل فإنما يدل على أن هذا الاسم هو اسمه الحقيقى الذى سمى به يوم ميلاده، كما أنه -أيضا- من الأسماء المحببة إليه، كما اقترن هذا الاسم دائما عند عاتكة وأخواتها الراثيات قبلها بصفة الكرم فعبد المطلب بن هاشم كريم جواد، اشتهر بالصدق والوفاء، أما فى الحرب فهو شديد قوى سيف على أعدائه وهى كما نراها تصوره "سيف صمصامة" أى "صارم لا ينثنى"(١). يصيب مقاتل الأعداء فيقتل من يصيبه ويرديه قتيلا. ومع تلك الشجاعة والقوة عند اللقاء ومنازلة الأعداء وقتلهم فهو سهل فى السلم تعودت يداه العطاء والبذل بسخاء، وفى قوى الجسم، كثير الخير.

ثم نراها تبكى فيه أصله الذى تأصل فى باذخ الشرف فهو من أصل شـــريف طيب رفيع الحسب كريم النسب.

وكما رأينا فإن عاتكة لم تخرج فى رثاء أبيها وبكائه عن الصفات التى رثته وبكته بها أخواتها من قبل صفية وبرة والتى كانت سائدة وشائعة فى الرثاء فى العصر الجاهلى.

(١) لسان العرب لابن منظور ج٤ ص٢٥٠٣.

أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب

ومن بنات عبد المطلب بن هاشم اللائى رثينه وبكين فيه معانى الخير والكرم والشهامة أم حكيم البيضاء وأمها "فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر"(١).

وكان عبد المطلب قد تزوج فاطمة فأنجب منها: "عاتكة، وأميمة، والبيضاء، وبرة"(٢).

وكانت البيضاء بنت عبد المطلب عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس"(٣).

وأنجبت منه "أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس أم عثمان ابن عفان، بنت عمة رسول الله -ﷺ-"(٤).

كما أنجبت البيضاء من كريز أيضاً "عامر بن كريز أسلم يوم الفتح وبقى إلى خلافة عثمان، وقدم على ابنه عبد الله بن عامر البصرة، وهو واليها لعثمان بن عفان -ﷺ-"(٥).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام حققها مصطفى السقا وآخرون ج١ ص١٠٩، وكذا الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، دار الفكر العربى- مؤسسة مصرية للطباعة والنشرج٨ ص١٤٦

(٢) المعارف لابن قتيبة ص١١٩.

(٣) المصدر نفسه ص١٢٨، وكذا معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام إعداد عبدأ مهنا ص٢٨٩، ٢٩٠.

(٤) المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١٩١.

(٥) المصدر نفسه ص٣٢٠.

رثاء أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب لأبيها

قالت أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب تبكى أباها وترثيه:

وبكى ذا الندى والمكرمات(١). ∴ ألا يا عين جودى واستهلى
بدمع من دموع هاطلات ∴ ألا يا عين ويحك أسعفينى
أباك الخير تيار الفرات(٢). ∴ وبكى خير من ركب المطايا
كريم الخيم محمود الهبات(٣). ∴ طويل الباع شيبة ذا المعالى
وغيثا فى السنين الممحلات(٤). ∴ وصولاً للقرابة هبرزيا
تروق له عيون الناظرات(٥). ∴ وليثا حين تشتجر العوالى
إذا ما الدهر أقبل بالهنات(٦). ∴ عقيل بنى كنانة والمرجى
بداهية وخضم المعضلات(٧). ∴ ومفزعها إذا ما هاج هيج
وبكى ما بقيت الباكيات(٨). ∴ فبكيه ولا تسمى بحزن

ثم يأتى دور أم حكيم البيضاء فى البكاء والرثاء فنراها تلبى طلب أبيها فى البكاء عليه فى حياته فترثيه بتلك القصيدة التى تعبر فيها عن صدق مشاعرها، فقد

---

(١) استهلى: أظهرى البكاء، وبكى: أمر من بكاء بالتشديد، بمعنى بكى عليه ورثاه.
(٢) الخير: أصله الخير بالتشديد فخففت الياء. التيار: معظم الماء، والفرات: الماء العذب.
(٣) الخيم: بالكسر الطبيعة والسجية .
(٤) الهبرزى: يقال رجل هبرزى: إذا كان وسيما جميلا ويقال: الحاذق فى أموره.
(٥) تشتجر: تختلط وتشتبك، والعوالى: الرماح، تريد حين تجد الحرب.
(٦) الهنات: جمع هنة، وهى كناية عن القبيح.
(٧) مفزعها: ملجؤها، والهيج: الحرب، وهو من التسمية بالمصدر.
(٨) لا تسمى: لا تسأمى، سهلت الهمزة بالنقل ثم حذفتها. شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر ص٨٣، ٨٤، وكذا معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام، إعداد عبدأ مهنا ص٢٨٩، ٢٩٠، وكذا أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام عمر رضا كحالة ج١ ص٢٨٢.

كانت من النساء الحكيمات العاقلات فى بنى هاشم، جمعت مع الحكمة وفرة الأدب ومع البلاغة فصاحة العرب.

ولم تخرج أم حكيم البيضاء فى رثاء أبيها عبد المطلب عن الإطار المألوف والمعروف لأخواتها فى الرثاء من قبل، فقد بدأت قصيدتها بداية تقليدية سائلة عينيها أن تبكى عبد المطلب، وأن تظهر البكاء ولا تخفيه وعلامة ذلك الدموع المنهلة السوافح، وأن تسعفها دائما بالبكاء فتعينها عليه، ففى ذلك راحة وتعزية وتأسى لنفسها، فتبكى وتبكى من حولها من الباكيات ثم بعد ذلك تسرد أهم الصفات التى اتصف بها عبد المطلب بن هاشم فى حياته دون غيره فتميط اللثام عن أهم معانى الخير فى جوانبه فتراها تبكى فيه الندى والمروءة، والكرم والإحسان فهو خير من بنى جادته الخير بين أهله، الذى اتسع صدره للقاصى والدانى صاحب الرفعة والفضل والكرم والجود والشرف والمعالى ذو الحظوة، والمكانة، غير متكلف فهو على طبيعته وسجيته التى خلقه الله عليها، يصل رحمه وقرابته دائما، جميلا وسيما فى مظهره ومنظره، حاذقا فى أموره.

فهو صاحب إحسان وفضل وعون للناس وبخاصة فى أيام الجدب والحاجـــة، فإذا ما أصاب القوم محل، كان عبد المطلب بن هاشم بمثابة الغيث الهامى الذى يروى الأرض فتنبت العشب وتجود بالخير، فيقصده القوم للنيل من كرمه، وعطائه، وجوده، فهم يتكاثرون ببابه عند الجدب والمحل.

وهو فى الهيجاء، واشتداد الحرب الأسد الشجاع الذى لا يهاب ولا يخاف طعان الأعداء المداقع حين تشتد الحرب.

فعبد المطلب أمل بنى كنانة المرتجى، وملجؤها إذا ما أفزعها مفـــزع الحرب أو انقلبت حال الناس من حسن إلى قبيح.

ثم نرى أم حكيم تطلب من عينيها أن تبكى عبد المطلب المرثى ولا تمل البكاء، وأنها ستظل تبكيه ما بقيت الباكيات.

فنجد أم حكيم قد حملت أبياتها جملة من المشاعر الحزينة والأحاسيس الباكية، وكما نعلم أنه كلما دنت القرابة بين الشاعر والمرثى ازداد الرثاء حسرة وتفجيعاً، وفيه تتدفق العاطفة لوعة وألماً، ويشتد الغلو فى ذكر أوصاف الميت وتعظيم المصاب به، فليس إلا الشعور يفيض دمعاً وأسى عليه وفخراً ومباهاة به ومدحاً وتأبينا له، فتتفاعل مشاعر مختلفة من خسارة وحزن وإعجاب واعتزاز ونقمة، وقد يبلغ بهم استعظام الخطب إلى أن يتمنوا حدوث انقلاب فى الكون(١).

والمتأمل فى القصيدة يدرك أن أم حكيم البيضاء قد أخذت الكثير من الألفاظ والمعانى من أخواتها فكررتها واستعانت بها لإظهار حسرتها ولوعتها على فراق عبد المطلب بن هاشم، ويظهر ذلك بوضوح فى قولها: "المكرمات" فقد ورد ذلك فى رثاء أختها برة لأبيها عند قولها: "على شيبة الحمد ذى المكرمات" كما جاء فى قولها: "أباك الخير" فى رثاء أختها صفية من قبل "أبيك الخير" وقولها: " طويل الباع" فى قول صفية أيضا، وقولها: "غيثا فى السنين الممحلات" فقد أخذت هذا المعنى من قول أختها صفية: "وغيث الناس فى الزمن الحرود".

أما قولها: "شيبة" فهو إشارة إلى اسمه "شيبة الحمد" وهو قد تردد فى كل أشعار بناته ممن سبقوها بالرثاء(٢)، ومع ذلك فالقصيدة قد احتوت بعضا من الصور الجمالية التى أوردتها لتوضح معانى الرثاء وتلبسها ثوب المحسوس، ويظهر ذلك بوضوح فى قولها: "تيار الفرات" استعارة توضح كثرة سكب الدموع، وغزارتها، وفى قولها: "طويل الباع" كناية عن سعة الصدر والرحابة، وإذاعة الصيت، وقولها: "وصولا للقرابة" كناية عن صلة الرحم توضح كثرة عطائه وصلته القوية بأهله،

(١) أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام بطرس البستانى – دار الجيل – بيروت ج١ ص٦١.

(٢) الكامل فى التاريخ للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبى الحسن بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير – دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ –١٩٦٧م، ج٢ ص٦.

وقولها: "وغيثا فى السنين الممحلات" استعارة أيضا توضح أنه صاحب إحسان وجود وعطاء ونوال وفضل وعون مساعدة للناس وبخاصة فى أيام الجدب.

وقولها: "وليثا حين تشتجر المعالى" تشبيه يوضح بسالة عبد المطلب وشجاعته فى المعركة، حين تجد الحرب، وقولها: "إذا الدهر أقبل بالهنات" كناية تجسم تغلب الدهر وإتيانه بالقبيح بدل الحسن.

وهكذا استطاعت أم حكيم البيضاء أن تأتى بالصور الفنية التى تساعدها وتعينها على إظهار معانيها وتجسيمها، وتضع بين يدى القارئ صورة واضحة مجسمة لعبد المطلب بن هاشم حتى ليخيل لقارئ أو سامع أشعارها أنه يجلس أمام مسرح مرئى الأحداث مشاهد الأشخاص، وصفات عبد المطلب التى رسمتها شاخصة أمامه ماثلة ترى بالعين المجردة.

وبالتأمل فى معانيها فمن الملاحظ أن أم حكيم البيضاء لم تأت بجديد أو زيادة عن المعانى التى بكته ورثته بها أخواتها من قبل بل نجدها تكرر ما سبق أو تأخذه فتخدعه لإرادتها فيبدو جديدا.

أميمة بنت عبد المطلب

ومن بنات عبد المطلب بن هاشم اللائى رثينه أميمة وهى شاعرة من شواعر العرب، وأمها: "فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم"(١).

وأميمة بنت عبد المطلب قد تزوجت فى الجاهلية من "جحش ابن رياب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان ابن أسد بن خزيمة حليف حـرب بن أمية بن عبد شمس"(٢).

وأنجبت منه "عبد الله" شهد بدراً، وعبيد الله وعبداً، وهو أبو أحمد، وزينب بنت جحش، زوج رسول الله -ﷺ- وهى بنت عمة النبى -ﷺ- وحمنة بنت جحش - التى كانت أما - لمجمد بن طلحة، وكان عابدا يقال له السجاد"(٣).

أسلمت وهاجرت

قال ابن سعد: أطعمها رسول الله -ﷺ- أربعين وسقا من تمر خيبر(٤).

وقيل: إنها أميمة بنت ربيعة ابن عم رسول الله -ﷺ-، الحارث بن عبد المطلب الهاشمية - أعنى التى أسلمت، وأطعمت من تمر خيبر، والظاهر أن أميمة الكبرى، العمة، ما هاجرت ولا أدركت الإسلام(٥).

---

(١) المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١١٩، وكذا شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر ص١٧، وكذا سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ص٢٧٣، وكذا تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الرابعة دار المعارف - القاهرة ج٢ ص٢٣٩.

(٢) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى ج٨ ص٣١، وكذا المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١٢٨.

(٣) المصدر نفسه ص٢٣١.

(٤) الطبقات الكبرى محمد بن سعد ج٨ ص٣١.

(٥) سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ص٢٧٣.

رثاء أميمة بنت عبد المطلب لأبيها

قالت أميمة بنت عبد المطلب تبكى أباها وترثيه:

وساقى الحجيج والمحامى عن المسجد[1] ∴ ألا هلك الراعى العشيرة ذو الفقد
إذا ما سماء الناس تبخل بالرعد ∴ ومن يؤلف الضيف الغريب بيوته
فلم تنفك تزداد ياشيبة الحمد ∴ كسبت وليداً خير ما يكسب الفتى
فلا تبعدن فكل حى إلى بعد ∴ أبو الحارث الفياض خلى مكانه
وكان له أهلا لما كان من وجدى[2]. ∴ فإنى لباك ما بقيت وموجع
فسوف أبكيه وإن كان فى اللحد ∴ سقاك ولى الناس فى القبر ممطراً
وكان حميداً حيث ما كان من حمد[3] ∴ فقد كان زينا للعشيرة كلها

كانت أميمة صاحبة جمال وجلال وفصاحة وذكاء وبلاغة وسخاء وشعر ونثر ونسب وفخر قال لها أبوها يوما مع أخواتها: اسمعينى شعرك رثاء بى كأنى ميت فقالت له أعيذك من ذلك فقال: لابد من أن تقولى فقالت:

هذه الأبيات التى لا نكاد نقرؤها حتى نحس من خلالها مدى الحزن والأسى الذى ملك عليها نفسها ومشاعرها، فراحت تثبت له أهم المفاخر، وأجل وأعظم

---

(١) الراعى العشيرة: الحافظ لعشيرته، وفى الفقد: الذى يفقد تريد الباذل المعطى.

(٢) " فإنى لباك ما بقيت.. .. " أخبرت بهذا الشطر عن نفسها إخبار المذكر، على معنى الشخص، كما قيل:

من ولى من بعدك يا عامر ∴ قامت تبكيه على قبره
قد ذل من ليس له ناصر ∴ تركتنى فى الدار ذا غربة

تريد: شخصا ذا غربة".

(٣) معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام عبدأ. مهنا ص٢٣، وكذا المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١٩٨، وكذا السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها مصطفى السقا وآخرون ج١ ص١٧٢، ١٧٣.

الصفات، وأسمى المعانى شعراً تسكبه رثاء وبكاء على فقيدها ذلك السيد العظيم الكريم فى عشيرته الذى أراد أن يعرف مكانته عند بناته فأراد أن يسمع بكاءه ورثاءه فى حياته، وقبل أن يموت ويرحل فتسعد نفسه وتسر لما يسمع على خلاف ما كان من بقية البشر(١).

والمتأمل فى أبيات أميمة، وقد بلغت حد القصيدة يدرك تماما كيف استطاعت أن تأتى له بأعظم صفاته، مما لم تتعرض لها أخواتها من قبلها، ألا وهى سقاية الحجيج،وقد كانت تلك مهمة عبد المطلب بن هاشم فى حياته، فقد تولى ذلك الأمر من أعظم الأمور آنذاك، وأشرفها(٢).

كما نجد أن أميمة قد تنفرد فى بدء قصيدتها فجاءت على خلاف مـــا كان من أخواتها، فلم تبدأ قصيدتها بالبدائة التقليدى المعهود وسؤال عينيها سكب الدموع بغزارة، بل بدأتها بذكر أهم صفات عبد المطلب بن هاشم مجسمة إياها فى ثوب محسوس، ومن الملاحظ أنها التزمت فيها الواقعية فقد هلك عبد المطلب حامى مجد قومه، وحافظ عشيرته كثير البذل والعطاء القائم على سقاية حجاج بيت الله الحرام وخدمتهم، الكريم فبيوته فيها متسع لإيواء الضيفان، وغيرهم فى ساعات الجدب والمحل، ثم نراها تذكر ولده فهم خيرة ما يكسب الفتى ويؤمل فى الدنيا، وقد أعطاه الله زيادة عن ذلك، وفى هذا إشارة من أميمة إلى المكانة والمنزلة التى تبوأها أبناء عبد المطلب من بعده.

ثم نجدها تكنيه بكنيته هى: أبو الحارث الفياض، وقد جاءت بصيغة المبالغة فى كلمة "فياض" وهى توحى بكثرة واستمرارية العطاء والبذل ومن الملاحظ أننا نجد

---

(١) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور زينب بنت يوسف فواز العاملى ص٧٠.

(٢) قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلى- الدهان – عبد السلام – الطبعة السادسة نوفمبر ١٩٨٤م، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان المجلد الرابع ص١٥٤.

أميمة تنفرد بتلك التكنية دون بقية أخواتها الراثيات، كما تناديه باسمه شيبة الحمد كما فعلت أخواتها من قبل فى بكائه.

ثم نراها تطلب منه وقد خلى مكانه عدم البعد فى حين أنها تعلم أن البعد نهاية الأحياء فكل حى إلى بعد مهما طالت إقامته، ثم نجدها تخبر عن حالها وحزنها إخبار المذكر على معنى الشخص بقولها: "فإنى لباك ما بقيت وموجع" فتضع صورة لحالتها بعد رحيله وفراقه، فستظل تبكيه طيلة حياتها، وتتألم وتتحسر لفراقه، وليس ذلك بكثير على عبد المطلب بن هاشم فهو أهل لأن تتألم له، وتحزن لفراقه.

ثم نجدها تختتم قصيدتها بدعاء لقبره بالسقيا على عادة أهل الجاهلية فتطلب من الله تعالى أن يمطر قبره بالرحمات ومع كل ذلك فسوف تبكيه وتبكى من حولها حتى بعد أن يضم فى اللحد ولم لا تبكيه؟ وقد كان زين العشيرة كلها والمحمود حيث كان الحمد.

وهكذا تبكى أميمة أباها عبد المطلب بن هاشم بكل معانى الرثاء، وصفات الخير التى بكته بها أخواتها السابقات مع ملاحظة إتيانها بالجديد من المعانى مما لم تتعرض له أخواتها من قبل "كسقاية الحجاج مثلا" وغيرها، بالإضافة إلى ذلك الصور البيانية التى جملت بها قصيدتها، وأتت بها لتوضح المعانى وتقربها إلى الأذهان، وتلبسها ثوب المحسوس ويظهر ذلك بوضوح فى قولها: "ومن يؤلف الضيف" فهذه كناية توضح كرمه، وقولها: "إذا ما سماء الناس تبخل بالرعد" استعارة تبين حالة الناس، وما يصيبهم من جدب وما يلم بهم من خطب.

وهكذا أتت أميمة بالصور المتتالية التى تؤكد صفات الخير عند عبد المطلب بن هاشم وتجسم معانى الكرم، والوفاء والشجاعة والقوة إلى غير ذلك.

أروى بنت عبد المطلب

ومن بنات عبد المطلب الباكيات فيه معانى الخير والكرم والشهامة: "أروى".

أما أمها فهى من أم واحدة دون سائر بناته، فقد تزوج عبد المطلب بن هاشم من "صفية – هى امرأة من بنى صعصعة، وولدها الحارث، وأروى"(١).

واختلف فى إسلام أروى "فقال بعضهم: أنها أسلمت"(٢).

"ذكرها أبو جعفر فى الصحابة وذكر أختها عاتكة بنت عبد المطلب وخالفه غيره فأما ابن إسحاق ومن وافقه فقالوا: لم يسلم من عمات النبى -ﷺ- غير صفية أم الزبير، وقال غير هؤلاء: أسلم من عمات النبى -ﷺ- صفية وأروى"(٣).

وقال بعضهم: أسلمت أروى بنت عبد المطلب بمكة وهاجرت إلى المدينة، وقال محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى: لما أسلم طليب بن عمير فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم المخزومى ثم خرج فدخل على أمه أروى بنت عبد المطلب فقال لها: قد أسلمت وتبعت محمداً، فقالت له أمه: إن حق من وزرت وعضدت خالك، والله لـــو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لتبعناه وذببنا عنه، فقال طليب: فما يمنعك يا أمى من أن تسلمى وتتبعيه؟ فقد أسلم أخوك حمزة، ثم قالت: انظر ما يصنع أخـــواتى ثم أكون إحداهن، فقال طليب: فإنى أسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه وصدقتيه وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، ثم كانت بعد تعضـــد النبى -ﷺ- وتعينه بلسانها وتحض ابنها على نصرته(٤).

---

(١) المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١١٩.
(٢) المصدر نفسه ص١٢٩.
(٣) أسد الغابة فى معرفة الصاحبة، عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير ج٥ ص٣٩١، وكذا أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، عمر رضا كحالة ج١ ص٢٢.
(٤) الطبقات الكبرى محمد بن سعد الواقدى ج٨ ص٢٨، وكذا نساء العرب مواقف – جرأة – بلاغة كريم عاصى – دار الفكر اللبنانى – بيروت – الطبعةالأولى ١٩٩١م ص٤٢، وكذا المستدرك على الصحيحين للحافظ أبى عبد الله الحاكم النيسابورى وبذيله التلخيص للحافظ الذهبى يوسف عبد الرحمن المرعشلى – دار المعرفة –بيروت – لبنان ج٣ ص٢٣٩، وكذا حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوى – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ج١ ص١٧٢.

أما من حيث زواجها فيروى أنه تزوجها فى الجاهلية عمير بن وهب بن عبد مناف بن قصى بن كلاب فولدت له طليباً، ثم خلف عليها أرطأة بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى فولدت له فاطمة[1].

وأروى شاعرة من شواعر العرب فى الجاهلية وإحدى فضليات النساء فى الجاهلية والإسلام شهرت بالفصاحة، كانت راجحة الرأى، تقول الشعر الجيد، وعمرت إلى خلافة عمر بن الخطاب، وتوفيت سنة ١٥ هـ[2].

وهى من بنات عبد المطلب بن هاشم اللواتى رثينه وبكينه فى حياته حينما طلب منهن أن يسمع رثائه، فعندما جاء دورها فى الرثاء أنبرت تقول:

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الواقدى ج٢ ص٢٨، وكذا المعارف لابن قتيبة حققه وقدم له ثروت عكاشة ص١٢٩، وكذا سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ص٢٧٢.

(٢) الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلى ج١ ص٢٩٠، وكذا شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر ص٦، وكذا الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال – دار الشعب، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – الطبعة الثانية ١٩٧٢م، ص١٢٦.

رثاء أروى بنت عبد المطلب لأبيها

قالت أروى تبكى أباها وترثيه:

على سمح سجيته الحياء[1]. ∴ بكت عينى وحق لها البكاء
كريم الخيم نيته العلاء[2]. ∴ على سهل الخليقة أبطحى
أبيك الخير له كفاء[3]. ∴ على الفياض شيبة ذى المعالى
أغر كأن غرته ضياء[4]. ∴ طويل الباع أملس شيظمى
له المجد المقدم والسناء[5]. ∴ أقب الكشح أروع ذى فضول
قديم المجد ليس له خفاء[6]. ∴ أبى الضيم أبلج هبرزى
وفاصليها إذا التمس القضاء[7]. ∴ ومعقل مالك وربيع فهر
وبأسا حين تنسكب الدماء ∴ وكان هو الفتى كرما وجوداً
كأن قلوب أكثرهم هواء[8]. ∴ إذا هاب الكماة الموت حتى
عليه حين تبصره البهاء[9]. ∴ مضى قدما بذى ربد خشيب

---

(١) السجية: الطبيعة.
(٢) أبطحى: أى من قريش البطاح وهم الذين ينزلون بين أخشبى مكة.
(٣) الكفاء: المثل والنظير.
(٤) الشيظمى: المقول الفصيح.
(٥) الأقب: الضامر البطن، والكشح: الخصر، والأروع: الذى يعجبك بحسنه ومنظره وشجاعته.
(٦) الهبرزى: الجميل الوسيم المقدام وكل جميل وسيم عند العرب هبرزى.
(٧) ومعقل مالك وربيع فهر:تريدبنىمالك بن النضربن كنانة، الفاصل: الذىيفصل فى الخصومات.
(٨) الكماة: الشجعان، واحدهم: كمى.
(٩) الربد: "كصرد" الفرند والخشيب: الصقيل، وقولها: "سيفا بذى ربد" تريد سيفا ذى طرائق، والربد: الطرائق، وقال صخر الغى:

أبيض فهو فى فتنة ربد ∴ وصارم أخلصت خشيبته

السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها، مصطفى السقا وآخرون ج١ ص١٧٣، وكذا الروض الأنف، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف سعد ج١ ص١٩٨، ١٩٩.

من الملاحظ أن قصيدة أروى تأتى فى كمها فى المرتبة الثانية بعد قصيدة أختها صفية إذ بلغت قصيدة صفية أحد عشر بيتا، أما قصيدة أروى فعشرة أبيات، وقد بدأتها أروى بداية تقليدية – كعادة أخواتها فى الرثاء ما عدا أميمة – وهو سكب الدموع، والبكاء على حلو الخصال وعظيم الفضائل على عبد المطلب بن هاشم، فنراها تقرر فى أسلوب سهل بكاء عينها، وقد حق لها البكاء ثم تستطرد فتسرد أهم الصفات التى يتصف بها عبد المطلب بن هاشم فهو رجل سمح، ومن طبيعته وسجيته الحياء، قرشى الأصل والنسب، كريم فى طبعه، فياض بالخير كثير العطاء والبذل والجود عالى الهمة والشرف الخير الذى ليس له مثيل أو نظير، ثم وصفته بأنه خطيب مفوه اشتهر بين قومه بالقول الفصيح، ثم نراها ترسم صورة واضحة تبرز فيها أهم ملامحه الجسدية فتصفه بأنه أغر أبيض الوجه يشع من غرته الضياء والنور قوى، ضامر الخصر ليس بالممتلئ المعيب، ولا الضخم الجسيم الذى يقعده ثقل جسمه عن الحركة، فيعطله عن قضاء حوائج الناس، وإكرامهم، أروع يعجب الناظرين حسنه وجماله ومنظره وشجاعته، حاز الشرف والمجد من قديم الزمن غير خاف مجده على أحد، وهو مع ذلك كله حصن وملاذ لكل من قبيلتى مالك بن النضر، وربيعة فهو الذى يفصل فى الخصومات، كما أنه صاحب القول الفصل إذا ألمت ملمة أو حدث شجار.

ثم نراها تستطرد فتتحدث عن جوده وكرمه فى وقت السلم فهو الكريم الجواد الذى اشتهر بكرمه وجوده بين القبائل

أما فى وقت الشدة والبأس والحرب فهو شجاع قوى حين تتسكب الدماء لا يهاب الموت ولا يخاف الأعداء، فإذا نادى منادى الحرب، واشتد الخطب، وقويت المنازلة وخاف الشجعان الفوارس الموت، وتزعزعت قلوبهم وأصابهم الذعر رأيته يقتحم غبار الحرب، فيمضى حاملا سيفه المعروف الشهير بين السيوف بطرائقه التى تميزه، الفرند الصقيل الذى ينبعث منه بهاء وضوء يأخذ بالأبصار ولا يزال ينازل

الأعداء ويضربهم بسيفه حتى يروعهم، ويفزعهم ويعيد النصر لقومه، والطمأنينة للفوارس بعد أن أصابهم الهلع[1].

ومن الملاحظ من خلال دراستنا وتحليلنا لقصيدة أروى نجد أنها كثيرا ما تستعين ببعض التراكيب والألفاظ التى أتت بها أخواتها من قبل، فقد أخذت منهم الكثير من ذلك قولها: "كريم الخيم" فقد تردد فى قول برة: "طيب الخيم" وفى قول أم حكيم البيضاء: "كريم الخيم: وتردد قول أروى: "سهل الخليقة" فى رثاء صفية، ورثاء عاتكة، كما تردد قولها: "على الفياض شيبة ذى المعالى" فى رثاء صفية، وأما قــولها: "شيبة" مشيرة إلى اسمه الذى اشتهر فقد تردد فى قول جميعهن وجاء قول أروى: "أبيك الخير" فى رثاء صفية، وأم حكيم البيضاء، كما تردد قولها: "طويل الباع، أملس شيظمى" فقد تكرر هذا الشطر بكامله فى رثاء صفية، وتردد قولها: "أبلج" فى رثاء صفية وتردد قولها: "هبرزى" فى رثاء أم حكيم البيضاء

ومن هنا يظهر لنا بوضوح اشتراك الأخوات فى المعانى والألفاظ والتراكيب مما يجعلنا نقرر أن رثاء عبد المطلب بن هاشم يسير فى ركب وإطار واحد، ويدور فى فلك متحدة وأن أغلب المعانى التى رثينه بها مشتركة، غير أننا لا ننكر أن منهن من أتت بالجديد من الصفات والمعانى مما لم تأت به الأخريات، ويظهر ذلك بوضوح فى رثاء أميمة.

وإذا كانت أروى قد أخذت الكثير من هذه الألفاظ والتراكيب والمعانى من أخواتها فإنها أيضا قد أتت بالجديد مما لا تتعرض له أخواتها من قبل كما فى قولها: " سجيته الحياء" فقد بكته بصفة الحياء وهى تنفرد بالبكاء فى هذا المعنى دون بقية أخواتها، كما نجدها تقول: "أبطحى" فهى تشير إلى قريشيته، وأن عبد المطلب بن هاشم من سكان البطاح، وهذا أيضا من المعانى الجديدة التى لم تتعرض لها واحدة من أخواتها، وهذا أمر يظهر بوضوح للمتلقين ولا يحتاج إلى إيضاح، فعبد المطلب

(١) الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات القلوب،محمود حسن أبو ناجى ص٢٩.

ابن هاشم من قريش البطاح وقولها: "نيته العلاء" نراها تغوص فى أعماق نفسه فتوضح أن نيته انعقدت على العلاء دائما فهو من طبعه وسجيته وليس فى ظاهره فقط.

كذلك نلحظ أن أورى قد استعانت على إبراز ملامح عبد المطلب بن هاشم ببعض الصور الفنية التى توضح المعانى وتؤكدها، فنراها تؤكد كرمه، وبذله وعطاءه بطريق الكناية فى قولها: "على الفياض" ثم نجدها تبرز ملامحه وتقربها للقارئين والسامعين بواسطة الصورة الفنية الرائعة التى أوردتها بطريق التشبيه فى قولها: "أغر كأن غرته ضياء" فهى تشبه غرته وجبينه فى شدة بياضها بالضياء فى شدة لمعانه وبريقه، وقولها: "حين ينسكب الدماء" كناية عن اشتداد المعركة.

ثم نراها ترسم لوحة فنية رائعة تصور فيها شجاعته وقوته حين تهتز قلـوب الفوارس، ويصيبهم الهول من شدة المعركة، ويهابون الموت، أوردتها بطريق التشبيه وبواسطة الأداة "كأن" فى قولها: "كأن قلوب أكثرهم هواء" فهى تصور قلوبهم – وقد توجست خيفة، وأرهبت الموت – بالهواء.

ثم ترسم صورته وقد خرج إلى المعركة ليفصل فيها، ويعيد الثقة لقومه ممسكا سيفه المزين بالطرائق فيشع من لمعانه وزينته.

ولعل كل هذه الصور الفنية أخذت أروى مادتها من الطبيعة التى تعيشها، وتتنسم أريحها وأيضا من البيئة العربية الأصيلة التى درجت فى رحابها، ومن هنا كانت صورها واقعية تمتاز بالسهولة والوضوح.

وهكذا تلتحم الخواطر والأفكار بين بنات عبد المطلب بن هاشم فيرسمن صورة قاتمة، ولوحة فنية حزينة معبرة عن رحيله وفقده، فتنبرى كل واحـدة لعرض صفاته، فتأخذ المعنى من الأخرى، وتتلقفه فتقلبه على وجوهه فتأتى به جديدا كل الجدة حتى كأنه يطرق السمع لأول مرة.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الوارد فى رثاء عبد المطلب بن هاشم من بناته الست فى صورة قصائد أو صورة مقطوعات يشكل فى مجمله صورة كلية عامة باعتبار أن كل قصيدة أو مقطوعة على حدة صورة جزئية من الصور الست أو الحلقات الست.

الخصائص الفنية لرثاء بنات عبد المطلب لأبيهن قبيل موته

أولاً: الألفاظ والأساليب

تتسم الألفاظ فى الجاهلية بسمة الغرابة، والوعورة، والجزالة لتناسب مظاهر الحياة البدوية، حيث فرض نمط الحياة فى الصحراء أساليب ومفردات معينة تنتمى إلى هذه البيئة، وقد تأثر هؤلاء الشعراء بمظاهر الحياة فى البادية وخشونتها فجاءت ألفاظهم قوية جزلة تتسم بالغرابة والخشونة، وفى بعض الأحيان جاءت رقيقة كما نرى فى قصائد الغزل لتناسب المقام الذى من أجله أنشئت القصيدة.

والمتأمل فى ألفاظ بنات عبد المطلب بن هاشم يجدها قد استخدمت فى معانيها الحقيقية وقد أحسن استخدامها.

ومن هنا جاءت الألفاظ سهلة توضح صفات عبد المطلب بن هاشم فى سهولة وبساطة ويسر ابتعدت عن الألفاظ الأعجمية "نظراً لأن العصر الجاهلى يقع فى إطار ما يسميه علماء الأجناس البشرية عصر نقاء الجنس، فإن لغة هذا العصر لم تشبها شائبة العجم أو اللحن"[1].

غير أنها لم تسلم من بعض الألفاظ الغريبة التى تحتاج إلى إيضاح.

ومن هنا جاءت ألفاظهن قوية معبرة عن معنى الرثاء فى الجاهلية والحزن على فقد الآباء فصيحة غاية الفصاحة لانطباعهن عليها، كما امتازت بوضعها فى

---

(١) فى الأدب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه، محمد صالح الشنطى، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ -١٩٩٧م، دار الأندلس للنشر والتوزيع حائل، المجلد الأول، العصر الجاهلى - صدر الإسلام - العصر الأموى ص١٢١.

مواضعها التى تتطلبها دون استكراه أو تكلف واستعمالها فى معانيها الحقيقية الموضوعة لها.

أما الأسلوب فهو "الوسيلة التى ينقل بها الأديب فكرته وعاطفته، وآراءه ومعانيه إلى الناس، ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير"(١).

ومن الملاحظ أن بنات عبد المطلب بن هاشم قد نقلن عاطفتهن تجاه فقد أبيهن فى أسلوب غاية فى السهولة والبساطة يفهمه العامة والخاصة مؤثرا كل التأثير فى نفوس القارئين والسامعين فقد استطاعت كل واحدة منهن أن تضع بين يدى المتلقى صورة حزينة قاتمة صادرة عن قلب مكلوم بدقة وقوة تأثير فخلص إلى المعانى فى إيجاز، وعدم إطناب وبعد عن التحليل والاستقصاء وتلك ميزة، ذلك بالإضافة إلى البعد عن المحسنات البديعية إلا ما جاء منها عفوا، وهكذا نجد رثاء بنات عبد المطلب بن هاشم يمتاز فى أسلوبه بالمتانة، وشيوع الدقة، والقصد إلى المعنى المطلوب فى سهولة ويسر.

ثانياً: المعانى والأفكار

الحديث عن المعانى والأفكار هو حديث عن المحتوى والمضمون فى العمـــل الأدبى والحديث عن المحتوى والمضمون هو حديث موصول لسائر القيم الفنية الأخرى، بكل اعتبار أعنى اللغة والوزن والقافية والصور الشعرية.. .. فهى جميعا عناصر مترابطة غير منفكة ولا قابلة للتفكك والتجزئة إذ إن العمل الفنى لا تتحقق قيمته إلا باتحاد هذه الأجزاء وائتلاف هذه العناصر.

وإذا كان المضمون هو نقطة البداية التى تتولد منها التجربة الفنية فإن هذا المضمون لا يكتسب قيمته إلا من خلال العمل الفنى نفسه أى من خلال سائر

(١) الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى، محمد عبد المنعم خفاجى – الطبعة الثانية ص٣٦١، ٣٦٢.

العناصر والقيم، المعانى قيمتها إذا لا قيمة لها فى ذاتها وإنما العبرة بالصورة التى وضعت فيها والإطار الذى عرضت بداخله.

والمتأمل فى معانى بنات عبد المطلب بن هاشم يجدها بسيطة لا تركيب فيها ولا تعقيد، قريبة التناول، امتازت بالصدق والصراحة والوضوح فى وصف الانفعالات والعواطف والوقائع ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق فى الخيال، فعبرت كل واحدة من بنات عبد المطلب بما يدور فى خلدها عن أسمى المعانى فى بساطة ويسر وقلما نجد فى شعر واحدة منهن معانى مركبة، وإنما جاءت معانيهن حسية مجسمة، نلاحظ ألوانها وأشكالها توضح خصال عبد المطلب بن هاشم، وتؤكدها فهى معان منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة وكلها حقائق تسرد سرداً قلما شابها الخيال، إلا ليزيدها إمعاناً فى الوضوح والجلاء، كما أنها معان حسية واضحة، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تضل فى ممراتها وشعبها الفكرية، كما يلاحظ فى المعانى أنها مستمدة من البيئة العربية ومنتزعة من الصحراء بما شاع فيها من معانى الكرم والجود، والوفاء، والشجاعة، والشهامة، والقوة ولكنهن أخذن هذه المعانى، وطوعنها فجاءت جديدة تلبس ثوب الجدة، والوضوح.

ثالثاً: الصور والأخيلة

تؤدى الصورة دوراً حيوياً فى بناء القصيدة؛ لأنها هى الوسيلة الدقيقة فى إظهار التجارب الشعرية بما تحوى من أفكار وخواطر ومشاعر وأحاسيس، ولكى تؤدى الصورة دورها لابد أن تساير الانفعال وجوه، وتتساوق مع الفكرة، وإلا كشفت عن زيف انفعالى أو زيف فكرى، هذا فضلاً عن أن الصورة الشعرية تعتبر بنت التجربة والانفعال والفكرة[1].

(١) النقد الأدبى من خلال تجاربى، مصطفى عبد اللطيف السحرتى، طبعة معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٢م، ص٨٤،٩٤ – طبعة مطبعة لجنة البيان العربى.

فالصورة هى الأداة الفنية التى يستخدمها الشاعر لنقل المعنى الذى اختمر فى فكره والإحساس الذى فاض به وجدانه من خلال عرضه لمشهد من الواقع والخيال.

ولعل الصورة "المثيرة للإعجاب" هى القادرة قدرة كاملة على أداء تجارب الشاعر ومشاعره بما تتجمع فيها من حلاوة الموسيقى وروعة الخيال ووحدة العمل الفنى وشخصية الشاعر، ومن تهيئة الجو الفنى للألفاظ ومن ثم يجب أن تكون الصورة عميقة فى نفس الشاعر وعضوية فى صميم التجربة وواضحة الرؤية للأشياء التى يرنو إليها الشاعر، ويحاول التمثيل لها"[1].

فقد طوف بنات عبد المطلب بن هاشم وحلقن فى كل الآفاق والأجواء، فأتين بالكثير من الصور الخيالية، التى توضح صفات أبيهن، وتؤكد فيه كل معانى الكرم والجود والبذل والشهامة والخير والقوة وغير ذلك من هذه الخصال، فقد صورنه بصورة صادقة فلا إيغال فى التصوير، ولا أغلال فى الفكر، بل التزمن الصدق والصراحة، كما اشتمل الوارد من شعرهن على الكثير من التشبيهات، والاستعارات والكنايات على نحو ما بينا، كما امتازت صورهن بالقرب من الأفهام، كما أنها اتسمت بالواقعية، وأغلبها استمد مادته من البيئة الصحراوية التى يعيشنها فجاءت صورهن تحكى حياة البادية، وما تمتاز به من صفات متأصلة فى نفس كل عربى.

رابعاً: الموسيقى

من أهم ما يميز الشعر الجاهلى ارتباطه منذ أقدم ما روى منه بالإيقاع المنتظم الذى تتناغم فيه العبارات ويكتمل لها بناؤها الموسيقى المتمثل فى تنسيق الكلام من حيث بنيته الدلالية على نمط خاص تتعاقب فيه الحركات والسكنات على نسق دقيق عرف بعد ذلك بالوزن، ويكمل هذا البناء الموسيقى المرتبط بتناغم العبارات اختتام كل وحدة من وحدات ذلك الكلام (أى البيت الشعرى) بصوت لغـوى واحد وهو ما عرف بالروى، وكان الشاعر يلتزمه فى القصيدة كلها.

---

(١) الأدب العربى الحديث محمد عبد المنعم خفاجى – طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ج٢ص١٢١.

فالموسيقى عنصر أساسى فى التجربة الشعرية، فهى والشعر صنوان لا يفترقان وقد تستغنى بعض أبيات القصيدة عن الخيال، ولكنها لا تستغنى عن الموسيقى. والموسيقى خارجية وداخلية، والعروض يحكم الأولى (وحدة الوزن والقافية)، أما الموسيقى الداخلية فتحكمها قيم صوتية باطنية، وهى أرحب من الوزن والنظام المجردين.

"وفيما يتصل بالموسيقى الخارجية فقد لاحظ بعض النقاد القدامى والمحدثين أن ثمة فروقا بين القصيدة الواحدة التى تنتمى إلى بحر واحد، فلا يوجد بيتان فى الشعر من صوت متكافئ واحد، فلكل بيت صوته الخاص الذى لا يتحد مع صوت بيت آخر، والذى يفضى بنا إلى هذا الجمال الموسيقى الغريب"(١).

ومن الملاحظ أن الشعر لا يحقق موسيقيته الداخلية بمحض الإيقاع العام الذى يحدده البحر فقط، بل يحققهما بأمرين:

الأمر الأول: بالإيقاع الخاص لكل كلمة، أى كل وحدة لغوية، لا تفعيلة عروضية فى البيت.

الأمر الثانى: بالجرس الخاص لكل حرف من الحروف الهجائية المستعملة، ثم بالجرس المؤتلف الذى تصوره الكلمات فى اجتماعها فى البيت كله، فى تتابعها فى البيت بعد البيت فى كل قصيدة، أو قسم من قصيدة(٢). وبالانسجام بين الجانبين الإيقاع والجرس تصدر موسيقى خفيفة ترى فى أوصال القصيدة تسمى بالنغم الشعرى، أو تسمى بالموسيقى الداخلية، تمييزا لها عن الموسيقى الخارجية، إذ تجتمع الأصوات اللغوية تحت تنظيم

---

(١) موسيقى الشعر إبراهيم أنيس الطبعة الثانية ١٩٥٢م، مطبعة لجنة البيان العربى مكتبة الأنجلو المصرية ص٢٨٨.

(٢) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره محمد سعد فشوان – مكتبة الكليات الأزهرية – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ –١٩٨٥م.

الإيقاع فى تموج يعلو ويهبط ويلين ويشتد متلائما مع تموج الفكرة والانفعال.

ومن المهم أن ندرك أن الشاعر الجاهلى لم يكن بحاجة إلى أن يتعلم ضوابط الأوزان، بل كان يحسها بالسليقة والفطرة فالإيقاع جزء أساسى من الشعر والتلازم بينهما لا محيد عنه، ولعل من الواضح أن هذه الأوزان قد تطورت لدى الجاهليين فى عصور موغلة فى القدم.

والمتأمل فى شعر بنات عبد المطلب بن هاشم الذى رثين به أبيهن يجد أن الألفاظ مختارة منتقاة مناسبة للمعانى وهى تمضى فى رفق وهوادة فى غير قلق أو اضطراب أو تكلف مع رصانة التعبير وإحكام الصياغة والمحافظة على النسق التقليدى للقصيدة العربية فهى على وزن واحد.

ومع الموسيقى الخارجية المتمثلة فى وحدة الوزن والقافية هناك موسيقى داخلية ظاهرة تتمثل فى هذا الانسجام والتآلف بين الألفاظ وما يكون بينها من المحسنات البديعية والزخارف اللفظية.

وهناك بعد ذلك الموسيقى الخفية التى نحسها من ائتلاف المعانى والأفكار وتلاقيها مع الخواطر والمشاعر فى إطار ألفاظ موحية وكلمات معبرة ذات دلالات شعورية خاصة بمعاونة الصور والأخيلة فى إبراز المعانى وتجسيد الخواطر والمشاعر فى قالب موسيقى خاص يتمثل فى الوزن المخصوص والقافية الممتازة.

أولاً: الخلاصة

ولعلى بعد ما تقدم أكون قد وضحت جانبا مهما من جوانب شاعرية هذه المجموعة من الشواعر اللائى برزن فى عالم الشعر فى العصر الجاهلى وتقدمن فيه ونبغن فى فنونه وبخاصة فى فن الرثاء، وألقيت الضوء على أن فن الرثاء بحسبانه المجال الفسيح الذى انطلقت فيه عواطف المرأة لأنه نوع من النواح والبكاء وفن البكاء والعويل يعد علما عليها أو هى من علاماته، وما لاحظناه حول طبيعة هذا الرثاء أن المرأة قلما تتحدث عن آلامها النفسية بعمق، وإنما فضلت فى رثائها البكاء والعويل وذكر الجوانب العامة من حياة الفقيد، وأكثر هذه الصفات يتعلق بالنواحى المادية فهو الحامى والمعيل والكريم والشجاع والفارس والمغوار، وكأنها لم تجد فى صدرها من لغة تعبر بها غير الدموع، فهى المترجم الوحيد لأحزانها. والنساء كما يقول ابن رشيق: "النساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدهم جزعاً على هالك لما ركب الله -ﷻ- فى طبعهن من الخور وضعف العزيمة .. .. وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء"(١).

أما الرجل فلديه القدرة على ضبط عواطفه وكبت أحزانه فيتجلد ويستغرق فى المصيبة أكثر، وإذا أراد التعبير انفجرت همومه وصار الشعر متنفسه إلى الراحة من فداحة المصيبة.

وها هن أولاء عمات الرسول -ﷺ- وقد كن ست نسوة: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة، وأروى، بنات عبد المطلب بن هاشم، جد الرسول -ﷺ- شاعرات مجودات غير أن الوارد المأثور من شعرهن قليل لكننى بينت أنه مع قلته كان شاهدا على إجادتهن فى فن الرثاء وبراعتهن فى نظم الشعر وخير ناطق بعبقريتهن وشاهد بشاعريتهن.

---

(١) العمدة لابن رشيق، تحقيق مفيد محمد قميحة ج٢ ص٣٦٤.

ثانياً: أهم النتائج

- قد بينت أن هناك فرقاً بين هذا الرثاء، ورثاء الخنساء أو غيرها من شاعرات وشعراء الجاهلية، فالمعهود أن الرثاء يكون بعد الوفاة. ولم يعهد أن رثى الشعراء أحداً فى حياته بخلاف رثاء بنات عبد المطلب، فقد كان فى حياته، وقد طلب منهن ذلك وسمع رثاءه بأذنيه وقد سعد بسماعه قبل أن يموت، وتلك تكاد تكون ظاهرة جديدة فى عالم الرثاء، فمن من الناس يرغب فى رثاء نفسه والبكاء عليه فى حياته؟!
- وقد بينت أن ذلك قد يكون مصدر شؤم على المريض كما أنه طلب صعب على نفس المطلوب منه الرثاء إذا كان الطالب عزيزا كالأب وغيره، وقد تبارى بنات عبد المطلب بن هاشم فى رثائه، والبكاء عليه فى حياته، وبادرن فى إسماعه رثاءه بإذنيه، وكأنه أراد بذلك أن يختبر مدى حبهن له فعبرت كل واحدة منهن بما جادت به قريحتها، فبكين فيه كل صفات الشهامة والرجولة والكرم، وربما يرجع ذلك إلى المكانة العظيمة التى كانت لعبد المطلب بن هاشم بحيث لا تستطيع واحدة من بناته أن ترد له طلبا فأوامره مطاعة، وطلباته مجابة، أو لعله يرجع إلى أن الشعر ملك عليهن المشاعر والأحاسيس بحيث تعجز كل منهن أن تخفيه أو تحول دون نظمه وقد بينت أن كلا الأمرين محتمل ممكن.
- قد بينت اشتراك الأخوات فى المعانى والألفاظ والتراكيب مما يجعلنا نقرر أن رثاء عبد المطلب بن هاشم يسير فى ركب وإطار واحد، ويدور فى فلك متحد، وأن أغلب المعانى التى رثينه بها مشتركة غير أننا لا ننكر أن منهن من أتت بالجديد من الصفات والمعانى مما لم تأت به الأخريات ويظهر ذلك بوضوح فى رثاء أميمة، وإذا كانت أروى قد أخذت الكثير من هذه الألفاظ والتراكيب والمعانى من أخواتها فإنها أيضا قد أتت بالجديد مما لم يتعرض له أخواتها من قبل على نحو ما بينا.

- وهكذا تلتحم الخواطر والأفكار بين بنات عبد المطلب بن هاشم فيرسمن صورة قاتمة ولوحة فنية حزينة معبرة عن رحيله وفقده.
- وقد أفردت فى البحث مساحة مناسبة لتناول شعرهن بالشرح والتحليل وأيضاً من الناحية الفنية وكشفت لناُ تلك الفرصة الاطلاع على طبيعة شاعريتهن الفنية وامتلاكهن أدوات الفن الجميل بكل مقوماتها سواء فى التجربة الصادقة التى تدل على معايشتهن لموضوع شعرهن، وصدق تعبيرهن عن مشاعرهن.

المصادر والمراجع

١- أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستانى - دار الجيل - بيروت.
٢- أسد الغابة فى معرفة الصحابة، عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، المعروف بابن الأثير -الناشر المكتبة الإسلامية.
٣- الإصابة فى تمييز الصحابة، شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد على العسقلانى، المعروف بابن حجر ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م - دار الفكر - بيروت.
٤- أضواء على الأدب الحديث، أحمد محمد الحوفى - طبعة دار المعارف - القاهرة.
٥- أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، عمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة - بيروت.
٦- البداية والنهاية، للحافظ بن كثير - الطبعة الثانية ١٩٧٧م، مكتبة المعارف.
٧- تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى، شوقى ضيف - الطبعة الثامنة.
٨- تاريخ الرسل والملوك، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم - الطبعة الرابعة - دار المعارف - القاهرة.
٩- جواهر السيرة النبوية، الشيخ قرنى طلبة البدوى - الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ -١٩٧١م، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده.
١٠- حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره، محمد سعد فشوان، مكتبة الكليات الأزهرية - الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م
١١- الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى، محمد عبد المنعم خفاجى، الطبعة الثانية.

١٢- حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوى - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

١٣- الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، زينب بنت يوسف فواز العاملى - الطبعة الثانية - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

١٤- ديوان الخنساء - المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان.

١٥- الرثاء فى الشعر العربى، محمود حسن أبو ناجى - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، نشر مكتبة دار الحياة - بيروت.

١٦- رسالة الغفران، لأبى العراء المعرى،ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" الطبعة الثامنة - دار المعارف.

١٧- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية، لابن هشام، للفقيه المحدث أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى، السهيلى، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف سعد - مكتبة الكليات الأزهرية مؤسسة مختار للنشر والتوزيع.

١٨- سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط - الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٩- السيرة النبوية، لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها، مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى،عبد الحفيظ شلبى - دار المعرفة - بيروت - لبنان.

٢٠- شاعرات العرب، جمع وتحقيق عبد البديع صقر - الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ -١٩٦٧م، منشورات المكتب الإسلامى.

٢١- الشعر الجاهلى محمد عبد المنعم خفاجى - دار الكتاب اللبنانى - مكتبة المدرسة - بيروت - لبنان ١٩٨٦م.

٢٢- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبورى الطبعة الثانية ١٤٠١هـ -١٩٨١م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢٣- صور من حياة الصحابيات عبد الرحمن رأفت الباشا - الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، دار الأدب الإسلامى ليماسول - قبرص.

٢٤- صور من سير الصحابيات عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى - الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ - دار ابن خزيمة الرياض.

٢٥- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى - دار الفكر مؤسسة مصرية للطباعة والنشر.

٢٦- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، للإمام تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى الفاسى المكى، تحقيق محمود محمد الطناحى - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٣٨٨هـ -١٩٦٩م.

٢٧- العمدة فى صناعة الشعر وآدابه، ونقده لأبى الحسن بن رشيق القيروانى، تحقيق وشرح مفيد محمد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٢٨- فى الأدب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسه منه المجلد الأول العصر الجاهلى - صدر الإسلام الأموى، محمد صالح الشنطى - الطبعة الثانية ١٤١٧هـ ١٩٩٧م - دار الأندلس للنشر والتوزيع حائل.

٢٩- قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلى - الدهان - عبد السلام الطبعة السادسة نوفمبر ١٩٨٤م، - دار العلم للملايين بيروت - لبنان.

٣٠- قول على قول حسن، سعيد الكومى - الطبعة السابعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م، دار لبنان للطباعة النشر - بيروت - لبنان.

٣١- الكامل فى التاريخ للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير – الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ -١٩٦٧م، دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان.

٣٢- لسان العرب، لابن منظور – دار المعارف.

٣٣- مختصر السيرة النبوية لابن هشام، إعداد محمد عفيف الزغبى – دار المطبوعات الحديثة الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

٣٤- المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبى عبد الله الحاكم النيسابورى وبذيله التلخيص للحافظ الذهبى يوسف عبد الرحمن المرعشلى – دار المعرفة – بيروت – لبنان.

٣٥- مسلمات خالدات، محمد عمر الداعوق، محمد على القطب – الطبعة الأولى منشورات المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – لبنان.

٣٦- المعارف لأبى محمد عبد الله بن مسلم، حققه وقدم له ثروت عكاشة – الطبعة الرابعة – دار المعارف.

٣٧- معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام عبدأ مهنا – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ -١٩٩٠م – دار الكتب العلمية – بيروت.

٣٨- المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

٣٩- موسوعة الشعر العربى اختارها وشرحها وقدم لها مطاع الصفدى، وإيليا الحاوى، أشرف عليها خليل حاوى التحقيق والتصحيح: نصاً ولغة ورواية أحمد قدامة – الشعر المخضرم، شركة خياط للكتب والنشر - بيروت - لبنان ١٩٧٤م.

٤٠- الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال - دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

٤١- موسيقى الشعر إبراهيم أنيس مطبعة لجنة البيان العربى - مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثانية ١٠٥٢م.

٤٢- نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين، محمود مهدى الاستانبولى - مصطفى أبو النصر الشلبى - الطبعة الثانية ١٤١٠هـ -١٩٩٠م - مكتبة السوادى للتوزيع - جدة.

٤٣- نساء ومواقف فايز موسى أبو شيخة - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م - مكتبة الفلاح - الكويت.

٤٤- نسب قريش، لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى، عنى بنشرة لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه ليفى بروفنسال - الطبعة الثانية - دار المعارف - بمصر.

٤٥- نساء العرب مواقف جرأة - بلاغة - كريم عاصى - دار الفكر اللبنانى - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٤٦- النقد الأدبى من خلال تجاربى، مصطفى عبد اللطيف السحرتى، مطبعة لجنة البيان العربى طبعة معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٢م.